د. يوسف عراقي

يَوميَّاتُ طَبيب في

تَل الزّعتر

حيفا - 2016

د. يوسف عراقي

يَوميَّاتُ طَبيب
فـي
تَل الزعتر

Youssif Iraki

The Diary of A Doctor in Tel Al-Zaatar

الطبعة الثالثة
حيفا 2016
Third Edition
Haifa – 2016

لوحة الغلاف والرسومات الداخلية للمؤلف

يرصد ريع الكتاب لدعم مستشفى حيفا

تصدير

يصدر كتاب الدكتور يوسف عراقي «يوميات طبيب في تل الزعتر» بطبعته الثالثة في حيفا. «حيفا» التي ولد فيها د. عراقي، لكنه لم يهنأ بالعيش فيها جراء النكبة التي حلّت بشعبه ومدينته الجميلة، فعاش اللجوء والكفاح اليومي من أجل البقاء. وهذه هي سمة كل فلسطيني متمسك بثوابته غير متزحزح عنها قيد أنملة، لأنه – اي الفلسطيني – يحب الحياة، ويسعى إلى أن تكون أفضل.
تأتي الطبعة الثالثة في ذكرى مرور أربعين عاما على المجزرة الرهيبة التي تعرّض لها سكان مخيم تل الزعتر. هذه المجزرة وغيرها من المجازر التي عاشها الشعب الفلسطيني لم تثنه عن تمسكه بحقّه في الحياة وحقّه في العودة إلى وطنه وأرضه وأملاكه، مهما كانت القرارات الدولية والأقليمية والعربية وغيرها مجحفة بحقّه، منتقصة منه.
مخيم تل الزعتر وكفاح سكانه، ونضال مقاتليه من الفدائيين صور مشرفة للعمل البطولي في سبيل حماية الفلسطيني الذي تخلى عنه الجميع، في حين أنّه لم يتخلَ عن كرامته.
هذا الكتاب هو شهادة حيّة من طبيب مستشفى المخيم، مؤلف الكتاب. ينقل من خلال يومياته صورًا من الملاحم الحياتية التي عاشها واختبرها بنفسه، وهو واقف إلى جانب شعبه فور عودته مباشرة من دراسته خارج لبنان.
وتحتوي اليوميات معلومات مهمة جدًّا لسير الحياة في المخيم في ظل حصار عنيف وظالم فرضته ميليشيات لبنانية واسرائيل خلال اجتياحها واحتلالها للبنان. كما وأن هذه اليوميات تعكس صورًا واقعية وعملية في كيفية التعامل مع الحالات الصحية والطبية على مختلف أنواعها وسط حالة من الحرب والقمع والعنف والقتل والتدمير. فحياة الإنسان غالية عليه وعلى قريبيه.
أثار الكتاب بما يحتويه من نصوص ورسومات انتباه كثيرين من المهتمين بتاريخ نضال الشعب الفلسطيني من اجل تحقيق مشروعه الوطني. ولفت الانتباه إلى هذا النوع من النصوص لكونه يزود المهتمين والباحثين والقرّاء بمعلومات حول دقائق الأمور من شخص ذي خبرة في مجاله الطبي، وصاحب ضمير حيّ يقظ لما كان يجري من حوله.
نفخر بالدكتور يوسف عراقي وبما قام به من خدمة إنسانية لأبناء شعبه في أحلك الأوقات، ولما يحمله من حسّ وطني وإنساني أساسه كرامة الإنسان واحترامه. إنها قيم ثمينة وغالية نسعى معًا إلى الحفاظ عليها.
بودي تقديم الشكر للأنسة صابرين كبها لاستجابتها المباشرة تطوعًا، ودون أي تأخير للقيام بعملية إعادة تنضيد مادة الكتاب على الحاسوب، وللأستاذ نهاد بقاعي مدير دار الأركان للنشر لاهتمامه بتصميم الكتاب وإخراجه بهذه الحلّة الجميلة. والشكر موصول إلى كل من رافق ودعم مشروع إصدار هذه الطبعة.

جونـــي منصــــور

حيفا، في 20 تشرين الأول 2016

الإهداء

إلى شهداء تل الزعتر الذين صنعوا مجدًا......

إلى أهلي: أهالي مخيم تل الزعتر الذين حفروا.. عميقًا في وجداني وغيروا مسار حياتي

إلى رفيقة دربي التي شاركتني كل همومي منذ بداية الطريق ....

تمهيد

كان اغتراب البحر بين رصاصتين
مخيما ينمو، وينجب زعتراً ومقاتلين
وساعدًاً يشتد في النسيان.....
محمود درويش (من قصيده احمد الزعتر)

أربعون عاماً مضت على ذلك الصيف من العام 1976، حيث الحصار، الصمود والمجزرة، في مخيم فلسطيني في شرق بيروت، كان اسمه «تل الزعتر»، اسم اسال الدموع في كل البيوت الفلسطينية، ورفعت عند سقوطه رايات الحداد في المخيمات الفلسطينية. كان تل الزعتر عنوانًا كبيرًا جاب العالم، وأصبح رمزًا للصمود الأسطوري للشعب الفلسطيني.
كان لي شرف المشاركة في هذه الملحمة الفلسطينية، من خلال عملي كطبيب تحت الحصار. لم يمكنني الوقت المزدحم بالعمل- حيث كُنّا نصل الليل بالنهار- من كتابة يوميات بكل تلك التفاصيل المليئة بالكثير من المآسي والمواقف البطولية، ولكنني احتفظت بقصاصات ورقية قليلة تحتوي على عناوين وبعض التواريخ، كنت أدونها، كلما لاحت هناك فسحة من الوقت لذلك، وكم كان قليلاً، حيث لم يتسع الوقت للراحة، فكيف بكتابة يوميات؟ كان هناك الكثير من التفاصيل التي لم تغادر ذاكرتي لحظة، حتى أنها ظلت تلاحقني وتزورني في أحلامي: كوابيس مرعبة لم يكن من السهل عليّ، رواية تلك الأحداث بتفاصيلها، وتكرارها للصحافيين والإعلاميين الذين حاولوا دائمًا عصر ذاكرتي، بأسئلتهم على مدى أسابيع، بعد خروجنا من المخيم وذلك بسبب غياب أي نوع من المعلومات عن المخيم تحت الحصار قبل سقوطه.
كان عليّ السفر إلى إيطاليا وفرنسا ضمن وفد فلسطيني، بدعوة من الحزبين الشيوعي الفرنسي والإيطالي، وكان علينا السفر بطريقة غير معهوده، والتي أخذت بُعداً دراميا. المطار مغلق، الحدود السورية مغلقة بالنسبة لنا. ولم يبقَ أمامنا سوى البحر، وكان الإبحار من مرفأ صغير تديره منظمة التحرير في مدينه صيدا. كان علينا السفر بمركب

صغير – بل هو زورق كبير– وكان علينا الإبحار إلى مرفأ "ليماسول" في قبرص. صعدنا والدكتور عبد العزيز والأخ عبد المحسن والأخت" زينب" إلى المركب، وإذ بنا نفاجئ بوجود الشاعر الفلسطيني الكبير"معين بسيسو"، وقد كان من ضمن الوفد. تذكرنا معاً اللقاء الأول في موسكو عام 1970 يوم نظمنا له ندوة شعرية مع الشاعر محمود درويش في جامعة الصداقة. حدثنا عن قصائده الملتهبة عن تل الزعتر وعن ديوانه الأخير: "خذي جسدي كيسًا من رمل "،وقصيدة " اقطع كفي أرسلها لك تل الزعتر .. برقية".
بدأ المركب بالتحرك عند الغروب، شعرنا أننا في رحله محفوفة بالمخاطر، لأن دوريات زوارق البحرية الإسرائيلية كانت تجوب البحر في تلك الأيام بكثرة، وأمامنا حوالي[18] ساعة للوصول إلى ليماسول. كان الزورق مليئًا بالمسافرين. جلّهم من الشبان الفلسطينيين، منهم من هو ذاهب للدراسة، ومنهم من هو راجع من حيث أتى. كانوا يُحدثون جلبة، تارةً ينشدون أغاني وطنية، وتارةً يتبادلون نكاتاً تتبعها ضحكاتهم العالية، التي لم يعكرها إلا صوت المحرّك. كان ذلك بعد الغروب وقد بدأ الليل يلقي بسواده على مياه البحر الهادئة. لقد أضفى وجود هؤلاء الشبان جوًّاً من المرح، أنسانا التفكير بالزوارق الإسرائيلية. وصلنا ليماسول في اليوم التالي، ومن نيقوسيا استقلينا الطائرة إلى أثينا، حيث كان بانتظارنا الأخ ماجد أبو شرار رئيس الوفد. ومنها تابعنا سفرنا إلى روما.
أقمنا في فيلا في احدى ضواحي روما تابعة لاتحاد نقابات العمال الإيطالي، الهدوء كان غير عادي، لا يزَينه إلا حفيف أوراق الشجر وزقزقة العصافير. في تلك الفيلا بالذات، شعرت لأول مرّة بالراحة والقدرة على التركيز، بعد أيام الحصار الطويلة والمريرة ...وهنا حضرت الفكرة بكتابة اليوميات. كانت الأفكار تتسابق.. من أين أبدأ؟ والتفاصيل كثيرة والمشاعر والأحاسيس الغزيرة التي رافقتني كل هذه الفترة لا بد من ترجمتها، حقًّا.. وجدتها فكرة جيدة.
بل أكثر من ذلك، وجدتها مسؤولية كبيرة، أن أروي ما حدث أيام الحصار، وما رافق ذلك من الآلام والعذاب، شعرت أنَّ عليَ واجباً أن انقل تلك المعاناة، والبطولة الجماعية لأهالي المخيم والتي ترقى لمستوى الملحمة في صمودهم الأسطوري. لا بُدّ أن يعرف العالم ما حدث، وخاصةً أنّه لم يكن هناك من وسيلة لمعرفة حقيقة ما جرى في تل الزعتر. وهكذا بدأت أرتب أفكاري مصممًا على تنفيذ الفكرة. بدأت استرجع ذاكرتي التي ساعدتني، من خلال الحديث المتكرر مع الصحافة والإعلام وأسئلة الصحفيين، التي ساعدتني على شحذ الذاكرة وسبر أغوارها. كيف لا وتلك الأحداث لا يمكن لها أن تُمحى من الذاكرة مهما طال الزمن.
كانت هناك مشكلة التسلسل الزمني، والأمانة التاريخية... في طريق عودتنا إلى بيروت عبر نفس الإبحار، كانت هناك أفكار عديدة، الاعتماد على ما تبقى من طاقم التمريض ومن بعض أهالي المخيم، للتأكد من صحة الحدث والتفاصيل من أكثر من مصدر. ولكن الفكرة

التي ساعدتني كثيراً على الالتزام بالأمانة التاريخية للتسلسل الزمني، كانت بالحصول على بعض ُنسخ من البرقيات المتبادلة بين غرفة العمليات المركزية للمقاومة والقيادة المحلية للمخيم خلال فتره الحصار.

إنَّ ما حدث في مخيم تل الزعتر أثناء الحصار، كان كبيرًا .... وكبيرًا جدًّا وليس باستطاعة أي شخص كان، أن يروي القصة كاملة بكل جوانبها وتفاصيلها. ولكن اليوميات ساهمت في تغطية ذلك الجانب المتعلق بالعمل الصحي والطبي والإنساني من خلال عملنا كأطباء وممرضين وممرضات ومتطوعين وعمال صحيين، ساهموا مساهمة كبيرة في العمل الطبي. ولولا جهودهم الجبارة لما استطعنا كأطباء: صديقي وأخي الدكتور عبد العزيز اللبدي وأنا، أن نقوم بتلك المهمة الصعبة داخل المخيم المحاصر.

آملا أن تساهم هذه اليوميات، بإبقاء جذوة الذاكرة الجماعية متوهجة، وذلك وفاءاً لشهداء المخيم وعائلاتهم. بالإضافة إلى حق الأجيال القادمة علينا، أن تعرف حقيقة ما جرى في مخيم تل الزعتر. إنما قصدته في سياق سردي للحوادث في هذه اليوميات من ذكر لبعض الأسماء، إنني قمت بالإضاءة على تلك البطولات الجماعية. ولكن واجب الأمانة التاريخية فرض نفسه بان اذكر بعض الأسماء، وخاصة أولئك الذين استشهدوا فإنهم الأبطال الحقيقين الذين صنعوا هده الملحمة الأسطورية. مُقدماً اعتذاري لأولئك الشهداء وعائلاتهم والذين ما زالوا على قيد الحياة. الذين لم يتمَّ ذكرهم في هذه اليوميات، بسبب عدم معرفتي بالتفاصيل في ذلك الوقت.

فملحمة تل الزعتر، لا يمكن لأي منا أن يغطي كل ما حدث فيها.

لقد أثار إعجابي ما يقوم به أبناء المخيم من الجيلين الثاني والثالث، وربما الرابع من نشاط ملفت، وذلك بتأسيسهم رابطه لأهالي تل الزعتر. حيث يحرصون من خلالها على التواصل فيما بينهم وإحياء المناسبات الخاصة بالمخيم وشهدائه. كما أنّهم من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، والعالم الافتراضي أعادوا صياغة البنية الاجتماعية لما تبقى من أهالي المخيم المنتشرين في مخيمات الشتات وفي المنافي البعيدة.

لا بد لي في النهاية من أتقدم بالشكر إلى كل من ساهم في إنجاز الطبعة الثالثة أخص بالذكر ما تبقى من الطاقم الطبي. ولا يمكن أن أنسى مساهمة الدكتور احمد أبو مطر الذي قام بالتدقيق اللغوي. والأخت العزيزة الكاتبة والأديبة حنان بكير بالمراجعة اللغوية، لا يمكن أن أنسى الفنان الكبير توفيق عبد العال، الذي أضفى على الكتاب مسحة فنية رائعة بتصميم الغلاف المعبر والرسومات الداخلية، وشكري الكبير للمهندس جبران جبران الذي زودني بخارطة المخيم وجواره. وأخيرًا كل الشكر للدكتور العزيز ابن حيفا المؤرخ جوني منصور صاحب فكرة إصدار الطبعة الثالثة في مدينتنا حيفا فهي المبتدأ والمنتهى.

يوسف عراقي – النرويج

مقاربة سياسية
لمرحلة حصار المخيم

جاء الحصار لمخيم تل الزعتر في ظل ظروف دولية، اتسمت بالحرب الباردة. وكان الصراع على أشده بين المعسكر الاشتراكي، وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي سابقاً من جهة، وأمريكا والدول الغربية من جهة أخرى، وفي وقت التراجع الكبير لمعسكر دول عدم الانحياز بعد غياب مؤسسيه: عبد الناصر، نهرو وتيتو. كان ذلك بعد شهور قليلة من التوقيع على الاتفاقية المصرية – الإسرائيلية حول سيناء. وتهيئة الأجواء لكامب ديفيد. فيما بعد، بدأت الولايات المتحدة من خلال أدواتها في المنطقة، ولتمرير هذه الاتفاقية، مخططًا لإثارة الفوضى في المنطقة، بقيادة هنري كسينجر وزير خارجيتها في ذلك الحين. وكان لبنان أرضاً خصبة لهذا المخطط، لوجود "الثورة الفلسطينية" على أرضه.

ذات يوم وفي اجتماع للقائد أبوعمار في بيروت في سبعينيات القرن الماضي قال: "إن المسافة بين جزيرة قبرص، وباب المندب هي مسافة استراتيجية، كما أن المسافة بين الخليج العربي وشرق البحر المتوسط هي أيضًا مسافة استراتيجية، وإن الثورة الفلسطينية تقع ضمن تقاطع هاتين المسافتين"، أي في عين العاصفة.

إن حرب لبنان، كما يقول جوزيف أبو خليل بدأت سنة 1969، وليس في 1975 [1]. وإن الكتائب بدأت بالتسلح والتدريب منذ عام 1969، أي منذ توقيع اتفاقية القاهرة [2]. وبدأ الحديث عن التجاوزات الفلسطينية وتضخيمها، كما بدأ قادة اليمين الماروني يتحدثون بلغة قاسية عن "الاحتلال الفلسطيني" وعن السيادة الوطنية، وتحرير لبنان من الغرباء. ولم تكن "إسرائيل" بعيدة عن هذا، فقد اجتمعت قيادة اليمين المسيحي ممثلة بـ "كميل شمعون وبشير الجميل" في مرفأ جونيه في نهاية كانون الثاني 1976، مع "شمعون بيريز" وزير الدفاع في حكومة رابين [3]. والحديث عن "الجيتو المسيحي"، وعن توطين الفلسطينيين في لبنان، كان قد بدأ يحتل الصدارة في مانشيتات الصحف والخطابات النارية، مقروناً بكلام آخر عن خطة كيسنجرية « تقوم على دفن القضية الفلسطينية في لبنان، وأن هذا

الكلام جعل المسيحيين يعيشون في ما يشبه الغيتو"[4]. ويقول جوزيف أبو خليل:إنّ الزعماء المسيحيين فوجئوا، بكلام الموفدين والمبعوثين، وخاصة الموفد الأمريكي "براون" وكلامه بمثابة دعوة المسيحيين للهجرة إلى أمريكا وتشجيعهم عليها [5].
كانت حادثة " بوسطة" عين الرمانة في 13 نيسان عام 1975، والتي أدّت إلى مقتل عدد من الفلسطينيين من أهالي تل الزعتر، وهم في طريق عودتهم من احتفال وطني في صبرا. كانت هذه الحادثة الشرارة التي أشعلت النار، وامتد لهيبها إلى باقي الأراضي اللبنانية.
في بداية كانون الثاني قامت القوات الانعزالية بحصار تل الزعتر ومنعت وصول التموين. وفي الوقت ذاته، قاموا بالهجوم على مخيم الضبية شمال بيروت، وارتكبوا مذابح ضد الفلسطينيين. في 19 كانون الثاني ارتكبت القوات الانعزالية، مجزرة مروّعة في منطقة المسلخ والكرنتينا، وكان أن قامت القوات المشتركة بالرد على هذه المجازر، باحتلال بلدة الدامور الواقعة إلى الجنوب من بيروت على الطريق الرئيسي للجنوب، كانت تقطنها أكثرية من المؤيدين لكميل شمعون، الذين كانوا يقيمون الحواجز على الطريق العام، حيث قتل الكثير من اللبنانيين والفلسطينيين برصاص القنص.
في السادس عشر من حزيران 1976 اختطف السفير الأمريكي "فرنسيس ميللوي" وهو في طريقه إلى القصر الجمهوري مع الملحق الاقتصادي والسائق اللبناني. ثم وجدوا قتلى بعد أيام حسب ما قاله (أبو اياد) [6]. بعد عملية الاغتيال بـ 6 أيام، أي في الثاني والعشرين من حزيران عام 1976، بدأت معركة تل الزعتر الكبرى. لقد بدأ حصار تل الزعتر، بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان بعشرة أيام، وقد رفض قادة القوات الانعزالية أي تسوية سلمية للصراع. لأنهم كانوا يراهنون على كسب المعركة عسكرياً، بحكم أن الموقع الجغرافي لتل الزعتر وسط حزام مسيحي، هو بحكم الساقط عسكرياً، بالإضافة إلى تواجد القوات السورية التي ستشل أي حركة للقوات المشتركة الفلسطينية والحركة الوطنية، لفك الحصار عن المخيم (أبو اياد) [7]. يقول "كريم بقرادوني" على لسان الرئيس حافظ الأسد:" إننا نتقدم في حقول ألغام". لم يكن سهلاً على سوريا، أن تبدو متصدية للمنظمات الفلسطينية ومنتصرة للمسيحيين على المسلمين. لقد كان قرار دخول القوات السورية إلى لبنان، قراراً إقليميًا ودوليًاً، بحسب رأي جوزيف أبو خليل في مؤلفه: "قصة الموارنة في الحرب". لقد التقت مصالح كثيرة من جهات متحاربة على تخوم تل الزعتر، الإسرائيليون كانوا هناك أيضًا. ففي رسالة مفتوحة إلى وزير الدفاع الإسرائيلي "بن أليعيزر" كتبت الصحفية البريطانية "هيلينا كوبان *" المتخصصة في شؤون الشرق الأوسط: " الواقع أنني لم أعلم إلا لاحقاً، بعدما أخبرنا "يوسي ميليمان"، بوجودك مع قادة الكتائب خلال حصار تل الزعتر الفلسطيني شرق بيروت، هل تعتبر عملية تل الزعتر من إنجازاتك؟ لا بُدّ من أن التعاون ومحاولة تنظيم ميليشيا الكتائب و"نمور" كميل شمعون كان صعبًاً، إذ لم يبرهنوا على فاعلية في المعارك. لكنك ثابرت على المهمة، ونجحت بعد

ثمانية أسابيع من الحصار القاسي الاستيلاء على المخيم " * (جريدة الحياة: لندن 9 ابريل 2001)

وبدوره يقول "امنون كابليوك" الصحفي الإسرائيلي في كتابه "تحقيق حول مجزرة صبرا وشاتيلا" (ص 120) عن لجنة التحقيق القضائية، وفي دورة طارئة للكنيست: صعد شارون المنصة مدافعا عن موقفه في جرائم صبرا وشاتيلا، موجهاً كلامه إلى وزير الدفاع قائلاً:" أنت يا سيد بيرين، عندما كنت وزيرًا للدفاع، أين كان ضباط الجيش الإسرائيلي أثناء مذابح مخيم تل الزعتر؟ أتحداك أن تقول أين كانوا؟". وسارع بيريز إلى نفي المزاعم نفياً قاطعاً. وبعد مرور أيام قليلة، صرّح الجنرال في الاحتياط "بنيامين بن اليعزر"، أن ثلاثة ضباط إسرائيليين، وكان هو واحدًا منهم، قاموا بزيارة الكتائب صيف 1976وأكد أنه رجع إلى إسرائيل قبل وقوع مجزرة تل الزعتر بخمسة عشر يومًا. (يديعوت أحرنوت، 24ايلول 1982).

أما الموقف العربي الرسمي فكان مثيراً للشبهة، وفيه كثير من الكيدية بين الدول العربية نفسها، في وقت كانت هناك احتجاجات ومظاهرات، في عدة دول أوروبية وعربية، استنكارًا على ما يحدث في تل الزعتر.

حتى القيادة الفلسطينية، لم يكن لديها رؤية على المستوى السياسي أو العسكري، للحفاظ على المخيمات الفلسطينية في لبنان، وخاصة في المنطقة الشرقية من بيروت، وإلا لما وقع مخيم تل الزعتر ضحية الخلاف السياسي، بين سوريا من جهة ومنظمة التحرير الفلسطينية، المتحالفة مع الحركة الوطنية اللبنانية من جهة أخرى.

يقول أبو أياد:" ولم نكن ندرك خطورة الوضع في بداية المعركة، إلى أن اتصل بنا ذات يوم، طبيبان من أطباء المخيم، لطلب النجدة. وكانوا يصرون على الحديث مع مسؤولين سياسيين من المقاومة، وليس مسؤولين عسكريين. وأحسست بغيظهم وهيجان نفوسهم، عندما قالوا لي بلهجة جافة:" إذا كنتم لا تستطيعون التوصل لوضع حد لهذه المجزرة، فجدوا على الأقل وسيلة لتموينا بالماء والغداء". [8]

ولكن القيادة لم تستطع إلا إدخال، بعض المجموعات الصغيرة للمخيم، بالإضافة إلى القيام "بحزام ناري "حول المخيم لضرب القوات المهاجمة. ولكن ذلك كان غير كاف لحدوث ما حدث.

(1) جوزيف أبو خليل: قصة الموارنة في الحرب: سيرة ذاتية , 1990, ص 12

(2) نفس المصدر: ص 17, (4) ص 33, (5) ص 36

(3) أبو أياد فلسطيني بلا هوية ص 270 , (6) ص 284

(4) أبو أياد: فلسطيني بلا هوية ص286

(5) أبو أياد. فلسطيني بلا هوية ص287

عُدْتُ من موسكو بعد تخرجي طبيباً.. وكانت عودتي في فترة هدوء، بعد أحداث عين الرمانة.. وكان الاختيار تل الزعتر، لماذا؟ لا اعرف، كنت أعرف فقط أن الطريق إلى تل الزعتر، لم يكن سالكا ولا آمنا، في أكثر الأحيان.

وجدت نفسي في مستشفى المخيم.

كان أول عهدي بالعمل في مستشفى المخيم، في الحادي عشر من أب 1975. وكان لقائي الأول بالدكتور عبد العزيز، كنت احمل في عقلي الكثير من النظريات، وأفكاري حُبلى بالعديد من المشاريع، رغم أنني طبيب حديث التخرج، وأحلم أن أبني مدينتي الفاضلة. بدأت ود. عبد العزيز بتداول الأفكار والخطط.

كان المخيم ذا كثافة سكانية كبيرة، أزقته ضيقة، ومجاريه مكشوفة، والمزابل منتشرة في كل مكان. الأزقة والمجاري كانت مرتعاً وملعبًا للأطفال، وما أكثرهم.

كان المستشفى، قد تمّ بناؤه حديثاً، وهو مؤلف من طابق تحت الأرض، وطابق أرضي. وفي الطابق الأول كان الجامع. ساهم أهالي المخيم واتحاد عمال فلسطين في تكاليف بنائه، بإشراف الهلال الأحمر الفلسطيني، وكان في المستشفى بئر ارتوازي.

بدأت العمل في العيادة الخارجية، حيث كان معظم المرضى من الأطفال، وغالبا ما كان الازدحام كبيراً. نبدأ الدوام في التاسعة صباحاً، وحتى الثالثة بعد الظهر. كنا ثلاثة أطباء، وبعد انتقال الدكتور صلاح إلى بيروت، بقينا طبيبان فقط. نستقبل المرضى ليل نهار، فهم لا يلتزمون بالمواعيد والبرنامج المعمول به. ولكون المستشفى يقع، في وسط المخيم، ويستقبل الحالات الطارئة، في أي وقت، وعند أهالي المخيم كل الحالات المرضية كانت بالنسبة لهم حالات طارئة.

كان أغلب المرضى من الأطفال، وتتنوع أمراضهم من الإسهال، إلى الالتهابات الصدرية، إلى أمراض الديدان، وكلها أمراض موسمية.

في أحد الأيام، جاءتني أم تحمل طفلاً هزيلاً، كانت قد عرضته على عدة أطباء، كان يعاني من الإسهال المزمن، والاستفراغ. فحصت الطفل، وشخصت حالته. ووضعت له العلاج المناسب ونظاماً للأكل، وأبقيته تحت مراقبتي الطبية، فترة من الزمن، بدأ الطفل يتحسن ووزنه يزيد. هكذا دخلت عالم المخيم، وشعرت بالثقة في عملي، واعتاد الأهالي طريقتي

في العلاج.
كان هاجس الطب الوقائي هو كل ما يشغل تفكيري، ولم يكن بوسعي طرح هذا الأمر في ذلك الوقت، حيث أن الناس نادراً ما يؤمنون بالنظريات، بل يؤمنون بالأمور العملية والمحسوسة.
في بداية عملي كنت أتوجه إلى بيروت يوميًا، حيث كنت اقطن مع أخي في الضاحية الشرقية من بيروت، في حي معظمه من المسيحيين اليمينيين. لا يفصلنا عن منطقة الجعيتاوي في الأشرفية سوى خط سكة الحديد.
كان الأول من أيلول، واذكر يومها أن وقعت حوادث زحلة، وكنت أمام امرين.. كانت حفلة زفاف أختي الوحيدة، وكانت ليلة متوترة، تزامنت مع أحداث زحلة. أبقى التوتر الناس في بيوتهم، وكانت تلك أخر ليلة لي في بيروت، عُدت بعدها إلى المخيم، وبدأت مشواري الطويل، ورحلتي مع تل الزعتر. ولكنها بالتأكيد لم تكن رحلة إلى المجهول ...
كان عملنا في تلك الأيام يقتصر على العيادة الخارجية، وبعض الحالات من الإصابات المنزلية. بعدها بأيام، توترت الأوضاع في منطقتي المسلخ والنبعة وأخذنا نستقبل بعض الحالات من هناك..
أخذنا نفكر بتنظيف الطابق السفلي الكائن تحت الأرض، ونُزيل الأتربة. واذكر يومها أن القرار السريع بترتيب المستشفى، كان له المردود الجيد، فقد استطعنا تنظيف الطابق وفرش الأسرة. وبدأت ملامح المستشفى تظهر شيئا فشيئا. لا أدرى هل كان ذلك حدسا؟ فقد توالت الإصابات بعدها بكثرة..
كان المستشفى يقوم بدور مركز إخلاء للإصابات، وإجراء الإسعافات الأولية اللازمة، وتحويل بعض الحالات إلى مستشفيات المنطقة الغربية من بيروت. وكانت عملية نقل الجرحى من منطقة سن الفيل والنبعة تتم بواسطة لجنة الارتباط اللبنانية الفلسطينية..
كنا موعودين بأجهزة للمستشفى، وفي اليوم التالي أحضر الدكتور نبيل معه جهاز أشعة وفني أشعة اسمه "سامي"، وفني مختبر اسمه "احمد عودة". وكأننا كنا على موعد، حيث بدأت الإصابات تصلنا من المنطقة الشرقية، فاستقبلنا (12) إصابة، من منطقتي سن الفيل والنبعة.
ولن أنسى فاطمة التي أصيبت بطلقة قناص في ظهرها، وصلتنا وهي بحالة صدمة عصبية، واستطعنا إنقاذها في الوقت المناسب، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها الإصابات. ولحسن حظنا، كان يومها حاضراً، الدكتور نبيل وهو الطبيب الذي عمل قبلنا في المخيم وعاصر احداث 1973، واشتباكات الجيش اللبناني مع المقاومة الفلسطينية في تل الزعتر. وبعد فاطمة جاءتنا عجوز كردية مصابة في صدرها. وكانت في وضع ميئوس منه. ولكن بذلت كل ما أستطيع لانقاذ حياتها. ونجحت التجربة. ودخلت بعد ذلك، مرحلة جديدة في العمل الطبي. إذ بدأت أقوم بالجراحات البسيطة إذا استدعت حالة المصاب ذلك.

كنا أنا وعبد العزيز غير ملمّين بالأمور الجراحية كثيرًا. فهو أنهى دراسته طبيباً عاماً، وعمل سنة في الهلال الأحمر الفلسطيني. أما أنا فكانت سنتي التدريبية بعد التخرج، كلها في التدريب الجراحي، وقد أعطاني هذا الشجاعة في إجراء العمليات.

كنا نقطن في الغرفة المجاورة للمسجد، في الطابق العلوي من المستشفى، وكان صوت زمور السيارة، بالنسبة لنا يعني جريحًا، فننهض عبد العزيز وانا، ونتوجه بسرعة إلى غرفة الطوارئ حيث الجريح.

كانت تحدث جلبة كبيرة عند وصول الجريح، فتكتظ بالأهالي الطريق من بداية المخيم إلى باب المستشفى، ويتجمهرون على بابه، وعلى الدرجات الأربع في مدخله، يتزاحمون محاولين معرفة الجريح، ونوع الإصابة إذا أمكن.

ذات يوم كنا نائمين، وحوالي الساعة الرابعة صباحًا سقطت قذيفة هاون قرب المستشفى، نهضنا عبد العزيز وانا، ارتدينا ملابسنا على عجل، وإذا بالقذيفة الثانية تهز بناء المستشفى. هرولنا نزولا.. وإذ بقذيفة ثالثة تسقط على بعد أمتار قليلة منّا، فدفعتنا جانبا، وكانت المرة الأولى التي نتعرف فيها على قذائف الهاون.

كان الشباب عادةً، ينتظرون قليلاً ثم يخرجون ليتفقدوا مكان سقوط القذيفة.. وإن كان هناك جرحى. أحضروا لنا مجموعة من الجرحى، وهم عائلة «أم عنبر» جارة المستشفى. أم عنبر بترت ساقها من أعلى الورك، وكذلك ساقها الأخرى. أم عنبر أمامي تنظر إلي ولا تتكلم، كانت بحالة صدمة.. قتل طفلاها، فقمنا بإرسالها إلى مستشفى الجامعة العربية، التابع لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، عرفنا فيما بعد أن أم عنبر فارقت الحياة. ولم يبق من العائلة إلا الطفلة.

في تلك الأيام انصب اهتمامي، على تجهيز غرفة الطوارئ، والتركيز على إعداد الكادر الطبي اللازم، للعمل في غرفة الطوارئ، من خلال التدريب النظري والعملي، ولم تكن غرفة العمليات قد اكتملت بعد..

كانت الإصابات في ذلك الوقت تأتينا بفترات متقطعة. نعود بعدها لممارسة عملنا اليومي. في العيادة الخارجية، وبعد انتهاء فترة المعاينات في العيادة الخارجية، كنا نقوم ببعض الأعمال مثل فرز الأدوية وترتيب الصيدلية، والتأكد من تجهيزات غرفة الطوارئ. كانت الزيارات المسائية والليلية للبيوت، شبه يومية. وكثيرًا ما كان أهل المريض، يحضرون إلى المستشفى لاستدعاء الطبيب إلى المنزل.. كانوا يأتون بحالة انفعال وخوف شديدين، وبالرغم من معرفتي وتقديري المسبق للحالة، من خلال وصفها لي من قبل الأهل. كنت اذهب مصطحبًا معي الممرض «هيثم».. حاملاً الفانوس، ونشق طريقنا عبر أزقة المخيم الضيقة والمظلمة.

ذات ليلة، جاءت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، باكية، لتخبرني أن الجميع في البيت، يعانون من استفراغ وإسهال شديدين. رافقني أحد الممرضين حاملاً الحقيبة

الطبية، وحملت أنا الفانوس وتبعنا الفتاة عبر الأزقة وكانت طوال الطريق، تحثنا باكية على الإسراع. وبعد أن عبرنا الكثير من الزواريب والأزقة، دخلنا بيتا، شبه مظلم، وفي زاوية الغرفة مصباح يبعث ضوءً خافتاً على ستة أشخاص جلهم من الأطفال، بينهم رضيعة، وقد افترشوا فراشًا بسيطًا على حصيرة من القش، وهم في حالة إعياء، من شدة الإسهال والاستفراغ، حتى الطفلة الرضيعة كانت في عداد من أصيبوا. بعد استفساري من الأم، عرفت أنهم أكلوا معلبات.. والنتيجة تسمم.

قمنا بإسعافهم بواسطة حقن ضد الاستفراغ، وعلقنا أمصالا، من محلول الملح والسكر للجميع، وبقيت تلك الليلة عندهم، حتى اضطررت للعودة للمستشفى وذلك لمعاينة حالات طارئة أخرى. لكني أبقيت الممرضة عندهم، تلك الليلة.

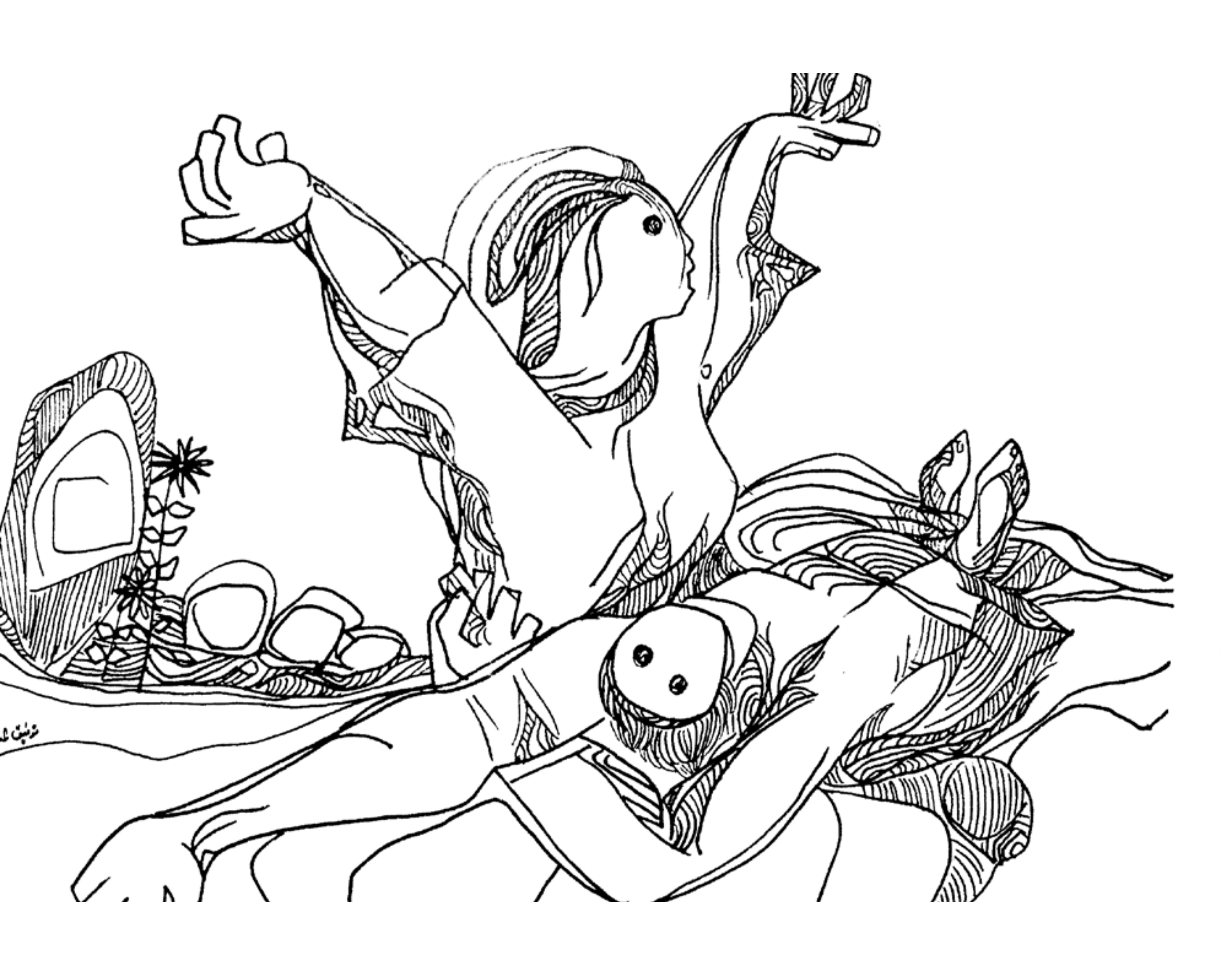
كان هذا غالبا ما يحدث، وخاصة خلال فصل الصيف. وكثيرًا ما كانت الأمهات يصبن بالهلع والخوف، عندما نضع الإبرة الوريدية "المخصصة للأطفال" في أوردة الرأس، "في حالة فقدان الطفل للسوائل الكثيرة نتيجة الاستفراغ".

ومع انتهاء الشهرين الأولين من عملي في المخيم، شعرت بأنني قد اندمجت بالحياة وعالم المخيم.. وكان الانعزاليون، قد أعلنوا فرض الحصار على المخيم، فمنعوا قوافل التموين من الوصول إلى المخيم، واستمر الحصار لمدة شهرين متتاليين. إعتاش الأهالي على ما خزنوه سابقًا من مواد تموينية، وكذلك نحن في المستشفى، عملنا بما خزّناه من مواد طبية. فبدت الحياة، داخل المخيم شبه عادية.

كانت المناطق المتاخمة للمخيم عبارة عن منطقة صناعية، حيث تتركز (27%) من مجموع الصناعة اللبنانية، وذلك لوجود أيد عاملة رخيصة. وكان هناك برّاد لتخزين الفاكهة، اضطر المقاتلون لفتحه، وتوزيع كميات من التفاح المبرد على الأهالي، لانعدام توفر الخضار والفواكه الطازجة في المخيم نتيجة الحصار.

في أحد الأيام كنت أعاين وأشرف على غيار الجروح في غرفة الإسعاف، نظرت عبر النافذة لأرى رجلاً يحمل على كتفه خروفاً مثلجًا. ثم تبعه رجل أخر.. وإذا بطابور من الرجال والنساء يحملون خرافًا مثلجة، كدت لا أصدق ما أرى.. كان منظرًا غريباً ظننت أن ما أراه، هو من شدة الإعياء والتعب. لكن سرعان ما قال لي سامي فني الأشعة، أن المقاتلين فتحوا براد اللحوم المثلجة وهم يوزعون ذلك على الأهالي. في حقيقة الأمر لم نشعر بنقص في المواد الغذائية في تلك الفترة.

كنا على تواصل شبه يومي، مع القيادة العسكرية المحلية للمخيم، وكثيرًا ما كانوا يزورونا في المستشفى، ونقضي في بعض الأحيان الليل نتحدث عن أوضاع الأهالي وعن أمور تهمّ المخيم والأهالي.



كانون الأول
السبت الأسود

في صباح ذلك اليوم قررت والدكتور عبد العزيز، التوجه إلى بيروت لإحضار بعض اللّوازم الطبية لغرفة العمليات، وكانت المرة الأولى التي ننزل فيها سويا. وذلك لأننا كنا ثلاثة أطباء بعد قدوم د. صلاح. وما إن وصلنا إلى بيروت الغربية حتى سمعنا بالمجزرة، وحوادث الخطف والذبح على الهوية، فقررنا العودة إلى المخيم مهما كان الثمن. اتصلنا بغرفة العمليات العسكرية المركزية، وطلبنا سيارة ارتباط «لأن النقل والتنقل، كانا يتمّان، بترتيب من لجنة الارتباط اللبنانية الفلسطينية. واذكر يومها كانت الشوارع خالية من المارة. ووعدنا الملازم «زياد» ضابط الارتباط، بتأمين وصولنا إلى المخيم، عبر مصفحة تابعة للجيش اللبناني، وذلك من منطقة المتحف (المقر السابق لوزارة الدفاع اللبنانية). كان الرصاص ينهمر من جميع الجهات، والطريق المؤدية إلى المتحف، من جهة مستشفى البربير خالية، كان المشهد رهيبًا، لكن علينا الوصول إلى المتحف. أوصلتنا سيارة الإسعاف إلى مستشفى البربير، ولم يستطع السائق مواصلة الطريق إلى المتحف لخطورة الموقف، فقررنا الذهاب سيرًا على الأقدام.. وفجأة ظهر الملازم «زياد»، وبسيارة جيب نقلنا بسرعة إلى المتحف. كان الرصاص ينهمر بغزارة كالمطر، في ذلك الجو الممطر، غادرنا سيارة الجيب مسرعين ودخلنا مبنى لجنة الارتباط، وانتظرنا هناك ما يقارب النصف ساعة.

وصلت المصفحة التي ستقلنا إلى المخيم، صعدنا إليها مع اثنين من المرافقين الفلسطينيين المسلحين، وذلك لحمايتنا. وفي الطريق إلى المخيم كنت من حين لآخر، أنظر من خلال الطاقة الصغيرة في المصفحة، كان المطر ينهمر بغزارة، والشوارع خالية تماماً من المارة. وبعد حوالي الربع ساعة، كنا قد وصلنا إلى مركز ارتباط "القلعة" القريب من مخيم جسر الباشا وهناك كان الشباب في انتظارنا، أخذنا المقاتل «أبو الروس» بالسيارة إلى المستشفى. كم كانت فرحتنا عظيمة، حين وصلنا بسلام، ولكن فرحة الأهالي، كانت أعظم. وصلنا وكأن على رؤوسهم الطير. "المخيم بدون أطباء".. جملة انتشرت قبل وصولنا

المخيم، وانتقلت عبر الأزقة ودخلت كل البيوت، تاركة علامة استفهام كبيرة حولنا.. لكنها ما لبثت أن تبددت حال وصولنا. وبعد حوالي الثلاث ساعات، كنا نستقبل في غرفة الطوارئ حوالي 12 إصابة، وبدأنا العمل من جديد. لقد كانت فرحة الممرضين كبيرة، فدبّ الحماس والنشاط، من جديد في المستشفى، وأدركنا أننا كنا على خطأ، في مغادرة المخيم كلانا، حتى لو كان من أجل إحضار لوازم طبية ضرورية لعملنا في المستشفى.

سكنني هاجس، وكنت أتساءل.. ماذا لو لم تأت المصفحة؟ ماذا لو لم نستطع الاتصال بلجنة الارتباط؟ كان الشعور دائمًا.. يجب أن نعود إلى المخيم بأي ثمن فالمخيم أصبح جزءًا من حياتنا والأهالي تنتظر!

ليلة رأس السنة

شَعَرَ عبد العزيز بالإرهاق الشديد، وأحب أن يقضي ليلة رأس السنة في المنطقة الغربية، وليحضر معه أيضًا بعض الأدوية والمواد الطبية. بقيت وحدي في المستشفى، وكانت فترة هدوء نسبي، كنت خلالها أعمل في العيادة الخارجية صباحًا، وأتفقد الجرحى في المستشفى، وفي المساء أقوم بزيارة بعض المواقع عند "أبو إبراهيم" و "أبو نضال"..

كانت ليلة رأس السنة، ولن أنسى تلك الليلة.. بعد نهار طويل مليء بالعمل المضنى والتعب، وصلت حالة ولادة وأنا أمقت هذا النوع من الحالات! ولكن لا بدّ من ذلك، وأنا الطبيب الوحيد في المستشفى. والمرأة هي زوجة أحد المقاتلين، وهذه الولادة الأولى لها. طالت عملية الولادة، ودقت الساعة الثانية عشرة ليلاً معلنةً بدء عام جديد.. وبعدها بلحظات خرج المولود الجديد إلى الدنيا. وما إن انتهيت من عملية الولادة، وسط إطلاق نار كثيف ابتهاجا بقدوم العام الجديد، حتى تحول بعدها إلى اشتباكات حقيقية، الإصابات تتوالى.. وكانت إصابة سامي ابن الثامنة عشرة، إصابة مباشرة في رأسه، فأحدثت نزيفا داخل الجمجمة، مما حتم فتحها، لتستمر العملية حتى ساعات الصباح، وأهله ينتظرون خارج غرفة العمليات، كان عليّ أن أقول لهم شيئا إيجابيا، ونجحت العملية..

كم كانت سعادتي كبيرة، وأنا أرى سامي يعود إلى حالته الطبيعية بعد ثلاثة أيام.

لقد أعطتني هذه العملية بنجاحها عزماً جديداً، فقد كانت العملية الرابعة التي أقوم بها، لمعالجة نزيف داخل الجمجمة، بفتح ثقب فيها، لمنع حدوث ورم وارتفاع الضغط داخل الجمجمة، والذي في الغالب، يؤدي إلى الوفاة، في حال لم يتم علاجه.

أمضيت رأس السنة وحيدًا، بعد انتهاء العملية وكانت الساعة تقارب الخامسة صباحًا. جلست وحيدًا آخذ قسطًا من الراحة، بعد أن ذهب الجميع، كل يحتفل بتلك الليلة على طريقته الخاصة، وضمن دائرته الخاصة. مرّ أمامي شريط الذكريات، وتذكرت ليلة رأس السنة الماضية. وكيف قضيتها على الطريقة الروسية. وإذا بممدوح يأتي ويشاركني ما تبقى من ساعات تلك الليلة. كان ممدوح، نجارًا سابقا، وهو الأن، الممرض والمقاتل.. نموذج للإنسان المؤمن بقضيته، مما يجعله يتقن أي عمل يوكل اليه.

جلسنا نحتفل بالسنة الجديدة، على طريقتنا الخاصة، اثنان وثالثنا، زجاجة من النبيذ الأحمر، وكانت ليلة رأس السنة بدون ثلوج بيضاء. ليلة رأس سنة زعترية.

لاحقًا، وفي احدى الليالي، بعد منتصف الليل بقليل جاءني المقاتل (صبحي) من قبل

غرفة العمليات العسكرية للمخيم، ليخبرني أن نكون على أهبة الاستعداد، لأن الشباب سيقومون بهجوم لاحتلال حرج ثابت، في محاولة منهم لفتح الطريق وكسر الحصار. وأخبرت الجميع أن يكونوا على أهبة الاستعداد.

بدأنا بتحضير الشاش والأمصال والجبائر، وكل ما يلزم في ظروف كهذه، من استعدادات وطوارئ وبقي الجميع في تلك الليلة في المستشفى.. كانت ساعة الصفر هي الواحدة والنصف ليلاً، وأن مدفع المضاد للطائرات هو الذي يعلن بدء الهجوم. وهكذا بدأت المعركة حسب التوقيت وكانت بعيدة عنا بعض الشيء.

بقيت تلك الليلة في غرفة الإدارة. جاء سلمان القائد العسكري في الثالثة صباحًا ليخبرني «أن الشباب احتلوا حرش ثابت». وواصل الاتصال بالشباب عبر اللاسلكي من المستشفى يعطيهم التعليمات. عرفت من خلاله أن الشباب احتلوا "قصر سابا"، وهو موقع استراتيجي، كما احتلوا "مستشفى الحايك"، والخسائر شهيد وجريح. بعدها بلحظات جاء المقاتلون، وقد احضروا معهم الجرحى والمرضى، الذين كانوا في المستشفى ومن بينهم طفلة كانت قد ولدت قبل لحظات، استقبلنا المرضى والمولودة الصغيرة في المستشفى. وكانت قد أصيبت ممرضة "من آل لحود"، أثناء الهجوم بكسر في ساعدها، قمت بإجراء عملية جراحية لها. وأجرى الدكتور عبد العزيز، عملية أخرى لمصابة من المستشفى.

كان كل شيء هادئاً في صباح ذلك اليوم، وفجأة عند الظهر.. بدأ القصف الشديد على المخيم، من عدة اتجاهات ومواقع. ومن مصفحات ودبابات وبدأنا نستقبل الجرحى بأعداد كبيرة. يومها لم أغادر غرفة الطوارئ وكانت الإصابات تتزايد، والمصابون يتكدسون، مع ذويهم في بهو المستشفى، محدثين جلبة كبيرة، كل يحاول معرفة من الذي أصيب، مما اضطرنا لإخراج كل من هو غير مصاب أو جريح، لتخفيف الزحام الحاصل، وكي نتمكن من تصنيف الإصابات، وإجراء الإسعافات اللازمة. خرجت من غرفة الطوارئ لأسمع صوت زمور السيارة المتواصل وأرى في بهو المستشفى، كتلا من الجرحى والناس يتحلقون حولهم محدثين جلبة كبيرة. تحوّل المستشفى إلى ورشة عمل حقيقية. ومرّت أيام وليال لم نعرف فيها طعم النوم أو الراحة، نواصل الليل بالنهار.. وعدد الإصابات في تزايد مستمر، والمستشفى يكتظ بالمصابين والجرحى. كلفنا، احمد أورفلي، وهو مسؤول التمريض، بتهيئة قاعة الجامع في الحسينية، برأس الدكوانة بعدد من الأسرة لنقل الإصابات اليها بعد إجراء العمليات والإسعافات اللازمة.

كانت لدينا في المستشفى سيارة إسعاف واحدة، ومع ذلك، تمكنّا من نقل معظم الحالات إلى هناك. مما خفف عنّا الكثير من الضغط داخل المستشفى. لكن سرعان ما بدأنا، نواجه مشكلة نقص أكياس الدم، حتى فقدت تمامًا. بدأ الجرحى والمصابون، يموتون من جرّاء النزيف الحاد، وكان الحل الوحيد أن اتفقنا مع أربعة من الممرضين، على أن يسلكوا طريق الجبل مع دليلهم، لإحضار ما يمكن من الأكياس، وكانت أكياس الدم هي كل شيء..

تطوع ممدوح وخالد وصبحي وأيوب، بالتسلل إلى الجبل لإحضار الأكياس. وفي صباح اليوم التالي، وصلت مجموعة مقاتلة عن طريق الجبل، أرسلت خصيصًا لهذا الغرض إثر إشارة لاسلكية، أرسلناها طلبا لأكياس الدم، ولكن كنا قد فقدنا العديد من الجرحى بسبب نقص الأكياس لنقل الدم.

كانت عمليات نقل الدم للجرحى، من الخطوات المهمة وذلك لوصول معظم الجرحى بحالة صدمة عصبية، من جراء النزيف والإعياء الشديد.

لم يعد باستطاعتي وعبد العزيز في تلك الفترة، اقتناص ساعات النوم في الغرفة العليا، حيث كنا ننام في السابق. كان صوت الاشتباكات والقصف العنيف في الشياح وعين الرمانة يدوي في أرجاء الغرفة، كنا نضع الأسرة في زوايا الغرفة وهاجس سقوط قذيفة علينا يطاردنا كالشبح، مما اضطرنا لنقل مكان نومنا إلى المختبر في الطابق الأول، لأنه أكثر أمانًا.

هدأت المعارك بعد أيام إذ تم التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار، لكن الحالة في المستشفى لا تطاق لكثرة الجرحى.

انتهزنا فرصة الهدوء، وما أعقبها من فتح الطرقات لتحويل جميع الجرحى، إلى مستشفيات بيروت الغربية وقمنا بتعقيم ما يلزم، وتنظيف المستشفى، ونعمنا بقسط من الراحة كي نستعد لجولة أخرى.. وهكذا انتهى الحصار الأول.

قطعتُ الحواجز والمتاريس متوجهًا إلى بيروت الغربية لزيارة الأهل، وكانت فترة أعياد. مكثت يومين عند الأهل، عدت بعدها إلى مخيم تل الزعتر.

توالت هجمات القوى الانعزالية، على المناطق الوطنية، من بيروت الشرقية، وسقط «مخيم ضبية" ومنطقة المسلخ والكرنتينا، لتأتي بعدها معركة الدامور، التي كانت معقلاً كبيرًا للقوى الانعزالية، وهكذا بقيت المنطقة الشرقية بمثلث النبعة وجسر الباشا وتل الزعتر...

كُنّا كلما حل الهدوء، نتابع العمل لإكمال البناء في المستشفى، وإعداد الكادر الطبي من خلال الدورات المكثفة التي كنا نجريها. ولم تقتصر الدورات على المستشفى والمخيم. بل نظم د. عبد العزيز، دورة في منطقة القلعة. ونظمت أنا دورة أخرى لفتيات الحزب الشيوعي، في منطقة رأس الدكوانة المجاورة للمخيم. دورة في الإسعافات الأولية ومبادئ التمريض. وكانت الفتيات يأتين للتدريب في المستشفى. كان في المخيم مستوصف للجبهة الشعبية وقد قام الممرض «الياس العشي» بدور كبير في العناية بالجرحى قبل أن يُدمر المستوصف لوجوده في مدخل المخيم.وكان للجبهة الديمقراطية مستوصف تشرف عليه الممرضة «آمنة سيف» وقبل الحصار كان يتناوب العمل فيه يوم في الأسبوع كل من الطبيبان "د.علي الزين" و "د. كامل مهنا".

وحدث أن هدأت الأحوال نسبيًا بعد ذلك، فتم فتح الطريق بضعة أيام بعد الحصار التمويني على المخيم، فاستعدنا نشاطنا وواصلنا عمليات البناء والتجديد. كان هدفنا

إكمال بناء غرفة العمليات وتجهيزها. واستطعنا القيام بذلك بأنفسنا بعد أن عانينا الكثير في تركيب الإضاءة اللازمة للغرفة، نظرًا لأنّ سقف الغرفة كان منخفضاً.

كما قمنا بإعطاء الدروس، وأعددنا في بادئ الأمر ثلاث ممرضات للعمل في غرفة العمليات، وكنت أتناوب وعبد العزيز في إعطاء الدروس.

كان يوم 4 أذار، آخر يوم ننزل فيه إلى بيروت. وقبل هذا التاريخ، وفي فترات الانفراج، نزلنا لبيروت عبد العزيز وانا مرتين بالتناوب. وكان يرتب سفرنا وعودتنا إلى المخيم لجنة الارتباط اللبنانية الفلسطينية. في احدى المرات، أتذكر أنني عُدت ليلاً وكان الجو ماطرًا، وسيارة الجيب تنطلق بنا بسرعة جنونية، وبشكل متعرج في طرقات منطقة عين الرمانة المظلمة، والتي تسيطر عليها القوى الانعزالية. كان المرور في تلك المناطق مخاطرة ومغامرة، حتى أنهم في احدى المرات، حاولوا إنزالي من الجيب واعتقالي، لولا وجود ضابط الجيش اللبناني والمسؤول عن إيصالي إلى المخيم.

كان يقطن في المنطقة المجاورة لتل الزعتر التي تدعى "القلعة"، فلسطينيون من سكان مخيم جسر الباشا، وكنت اعمل في عيادة جسر الباشا ثلاثة أيام في الأسبوع مناوبةً مع د. عبد العزيز.

كان بالقرب من المخيم كنيسة صغيرة، حيث كانت الراهبة "ماجدة"، وهي بلجيكية الأصل، ومعها راهبتان، كنت أتردد عليهن بعد انتهاء عملي في العيادة وأتابع معاينتي للمرضى عند الراهبات، كن يقمن بعمل إنساني عظيم في المخيم، حيث لم يبق فيه إلا العجزة، إذ تهدم قسم كبير من بيوت المخيم في المعارك الأخيرة، فانتقل معظم الأهالي إلى منطقة القلعة، الأكثر أمانا.

كانت الراهبة ماجدة ترشدني إلى بعض المرضى، فازورهم في بيوتهم وأقدم لهم العلاج. وكان الأب بولص راعي الكنيسة، يتردد عليهن من حين لآخر.

كنت ادرس مع الراهبات الأمور الصحية، وخاصة حالة الملاجئ غير الصحية داخل مخيم "جسر الباشا" وسبل تحسينها، وكانت هموم الراهبات العناية بالأطفال الصغار، كما أصبحت النظافة من همومنا الأساسية، بعد اكتشاف حالات من الجرب، خاصة بعد نزول الناس إلى الملاجئ. بعدها، سافرت الراهبة "ماجدة" إلى بلجيكا مصطحبةً معها أطفالا من المخيم، من عائلة فقدت الأم قواها العقلية، وكان لا بد من طريقة لتربية الأطفال، وسافرت معها الراهبات الأخريات.

بقي الأب بولص، الذي أدى لنا خدمات جليلة، وكان خشبة الخلاص لكثيرين من الجرحى، عندما كان ينقلهم بسيارته الصغيرة إلى منطقة بيروت الغربية، وكان الأب بولص، بالإضافة إلى جهاز اللاسلكي، صلة وصلنا الوحيدة مع بيروت الغربية. الأب بولص وهو راهب كاثوليكي، تعرفت عليه منذ بداية عملي في المخيم، وتطورت بيننا صداقة حميمة أثمرت خلاصًا للعديد من الجرحى ذوي الإصابات الخطيرة أو البسيطة، ينقلهم بسيارته

ويحضر لنا الأدوية التي تنقصنا في المستشفى.
وعندما كانت سيارة الأب بولص تعبر طرقات المخيم في تل الزعتر، كان الأهالي يتجمهرون أمام المستشفى ويستفسرون إن كان احضر لهم الدواء، ويسألون عن أخبار الأوضاع في بيروت الغربية، وكنت أعرف بوصوله من الجلبة التي تحدث أمام المستشفى. كان يحضر في سيارته الصغيرة من حين لآخر، الخضار والفواكه المرسلة من بيروت الغربية، من عائلات إلى ذويهم في المخيم، وكذلك الرسائل. وكم تعرض الأب بولص للخطر من جراء ذلك.

جاءني الأب في أحد الأيام، وقد بدا الخوف ظاهرا في عينيه ووجهه، ونظراته من تحت النظارة، تنم عن أن شيئًا ما قد حدث. أخبرني أن عناصر من الكتائب أوقفوه، بالأمس، ووجهوا له إنذارًا، بأن يوقف تنقلاته واتهموه بأنه "عميل" للفلسطينيين! نصحته بوقف رحلاته هذه لأنها محفوفة بالمخاطر، فلا الهلال ولا الصليب ولا غصن الزيتون ولا ثوب الكهنوت، يمكن أن يحميه عند القوات الانعزالية.

ونظرًا لخطورة الطريق بين مخيم جسر الباشا ومخيم تل الزعتر، عمدنا إلى افتتاح مستوصف بمعاونة الدكتور "جورج"، وهو طبيب فلسطيني كان يعمل في مخيم جسر الباشا. وكنت بين الحين والآخر أذهب إلى هناك لإكمال تجهيزات المستوصف، فجهزنا في غرفتين ثماني أسرة، وذلك تحسبًا، لحدوث إصابات يصعب نقلها مباشرةً إلى المستشفى.

كنا نقوم في أحد الأيام بزيارة المواقع للمقاتلين في منطقة القلعة، لنشاهد خطوط التحصينات التي بناها المقاتلون، ويومها كان نهارًا مشمسًا، ذهبنا سيرًا على الأقدام. قطعنا الطريق بين مخيم تل الزعتر وجسر الباشا.. وتجولنا في الغابة الصنوبرية، ونزلنا في الخنادق التي حفرها المقاتلون، وكانت الأوضاع الأمنية جيدة، والهدوء أنسانا ما نحن فيه. قضينا نهارًا ممتعًا مع المقاتلين. عدنا عصر ذلك اليوم، وما أن وصلنا إلى المستشفى وإذا بقذائف الهاون تتساقط بكثافة على المخيم كالمطر من جهة المنصورية التي تقع على الجهة الشرقية من المخيم.

يومها قضى العديد من الناس، من جراء هذا القصف العشوائي، وكان من المحتمل أن أكون ومن كان معي من الممرضين، ضحايا لهذا القصف، لو تأخر وصولنا بضع دقائق، لأن عددًا من القذائف، سقطت في نفس الطريق الذي كنا نمر به قبل دقائق.

كانت الإصابات من جراء هذا القصف، جميعها في صفوف الأطفال. فقد سقطت قذيفة على معسكر الأشبال، واستشهد حوالي ستة عشر منهم. وبدأت الإصابات تتوالى على المستشفى، حتى غصّ بهم، وعدنا إلى العمل الشاق من جديد. وكانت هناك حالات خطيرة جدًا، ولن أنسى ذلك الجريح وقد احضروه، وهو بلباس النوم، والرئة اليمنى خارج صدره، وكبده وأمعاؤه، خارج جسده، عاش لدقائق وما لبث أن فارق الحياة.

كانت اللجنة الأمنية، قد وعدتنا بتأمين نقل الجرحى إلى مستشفيات بيروت الغربية. وضعنا الجرحى في شاحنة تنقلهم ولكن القوات الانعزالية منعت مرورهم، فأعادوهم الى المستشفى. وحاولنا ذلك عدة مرات، لكن من دون جدوى، استشهد منهم ثلاثة في هذه المحاولات. وأخيرًا أبقيناهم في المستشفى، محاولين تقديم ما أمكن من العلاج، على الرغم من إمكانياتنا المحدودة.

كانت مشاكل المستشفى لا يمكن توقعها، فقد أصبحنا بحاجة لمولد كهربائي، فلدينا مولدين عاطلين عن العمل، ولم يتمكن الفني من إصلاحهما. حاولنا الحصول على مولد كهربائي، كانت منطقة المصانع المتاخمة للمخيم، ذات منفعة كبيرة لنا ولأهالي المخيم، فقد حصلنا منها على مكيفات للهواء، وعلى مولد كهربائي، تم تركيبه ووصله بكهرباء المستشفى لاستعماله عند الحاجة.

*قبل أيام قامت اللجنة الأمنية بزيارة المخيم وكانت برئاسة الوزير غسان تويني وعضوية ميشال سماحة عن حزب الكتائب واجتمعت مع قيادة المخيم بضور الأطباء.



الهجوم الكبير

الثلاثاء الثاني والعشرون من حزيران 1976، كنا على موعد غير متوقع مع الهجوم الكبير، على المخيم من قبل القوى الانعزالية. تلك الليلة كنا نسهر كالعادة لساعة متأخرة. كان طبيعيا أن يحدث قصف ليلي متقطع على المخيم، وكان جميع السكان يقضون الليل في الملاجئ.

قبل ذلك بأسبوع تقريباً، كانت «إيفا» الممرضة السويدية، المتزوجة من أحد شباب المخيم الشهيد "يوسف حمد"، أحد مناضلي الجبهة الشعبية، والمسؤول الصحي عن المستوصف التابع للجبهة الشعبية، قد أصيبت من جراء القصف. إيفا، وكانوا يسمونها "سميرة"، قررت العيش في المخيم، وقد ربطت مصيرها بمصير الأهالي فيه، وكانت تعمل في مستوصف الجبهة الشعبية. قبل يوم من إصابتها، زارتنا في المستشفى، للتعرف على الأقسام وغرفة العمليات والتجهيزات الطبية. جاءوا بها بعد إصابتها مباشرة، إلى المستشفى، وجهها مغبر، وذراعها اليمنى تتدلى ومعلقة بكتفها ببقايا الجلد فقط. والدم ينزف بغزارة من كتفها، كانت بيدها اليسرى تحاول إيقاف النزيف من ساقها اليسرى، كان هناك جرح كبير ينزف، وكسر في عظمة الفخذ اليسرى، كانت إيفا حامل في شهرها الرابع، وتسأل بإلحاح عن زوجها يوسف، وتطلب مني إعطاءها إبرة مورفين، من شدة

الألم حاولت تهدئتها، وأعطيتها إبرة مسكنة للأوجاع وبعد فحصها، أخبرتها أن ذراعها بحاجة لعملية بتر فوق الكوع ، وكان هذا رأيها أيضًا .أنزلتها لغرفة العمليات، وأرسلت في طلب الطبيب السويدي * – الذي كان يعمل مع زوجته وإيفا في مستوصف الجبهة الشعبية، الذي دُمر نتيجة القصف، لوقوعه في أول المخيم – ليساعدني في العملية، وذلك بحكم أنها مواطنة سويدية، وليطّلع على وضعها. ونجحت العملية التي أجريناها لإيفا.

وقد تقبلت أثناء ذلك خبر استشهاد زوجها بشجاعة فائقة، كان همها الاحتفاظ بالجنين، كذكرى من زوجها الذي احضروه إلى المستشفى وكان قد فارق الحياة. وعرفت من «إيفا» أن قذيفة سقطت على بيتهم في تلك الليلة.

وضعنا «إيفا»في قسم النساء، وفي اليوم التالي، جاء ثلاثة أفراد من بعثة الصليب الأحمر الدولي لنقل إيفا من المستشفى. وعند استفساري أين؟ قالوا إلى جونيه، ومنها إلى السويد. وجونيه هي معقل القوى الانعزالية، فساورني الخوف والقلق عليها، وخشيت من حدوث مكروه لها. رفضت الفكرة مبدئيًا، بدون أن أصرح لها بذلك، وتركت لها حرية القرار ولكني سألتها رأيها، فرفضت هي الفكرة أيضًا، رفضت الذهاب معهم وفضلت البقاء معنا، رغم كل المآسي التي نعيشها في كل لحظة! بقيت في ذلك القسم المظلم من المستشفى، الذي كان يضاء ويُهوّى ساعات معدودة في النهار. لقد ربطت مصيرها بمصيرنا. ففي عروقها اختلط الدم الفلسطيني، وبعد شهور ستلد طفلاً من شهيد فلسطيني.

طالت سهرتنا في تلك الليلة حتى خيوط الفجر الأولى، لنسمع دوي قصف لم نعهده من قبل، واستمر القصف متواصلا والقذائف تنهال علينا كالمطر، وبناء المستشفى يهتز من جراء ذلك، حتى أننا أخذنا نعد عدد القذائف وأحيانا كان العدد يصل إلى 24 قذيفة في الدقيقة الواحدة.

كان القصف الذي نسمع، وتواصله بهذا الشكل، جديدًا علينا. ومن حسن الحظ أن القصف بدأ مبكرًا، ولو تأخر حتى الصباح، لذهب ضحيته الكثير من أهالي المخيم.. كان الأهالي عادةً يخرجون من الملاجئ في الصباح لقضاء حاجاتهم اليومية. في ذلك اليوم لم يغادروا الملاجئ. ومع طلوع ضوء النهار كان القصف ما يزال مستمرًا بنفس الوتيرة.. حاولنا الاستفسار، ولم نعرف جوابًا لذلك.

وما هي إلا لحظات حتى عرفنا سبب هذا القصف، فقد بدأ هجوم واسع على المخيم من ضيعة المنصورية.. وهذا ما عناه لنا القصف العنيف، الذي كان تمهيدًا لهذا الهجوم.

لم يتمكن المهاجمون من التقدّم نحو المخيم. وكنا نعيش فكرة استحالة تقدّمهم، لم نكن لنصدق بأنهم يجرؤون على مهاجمة المخيم! وانتهى اليوم الأول من الهجوم دون أن يحققوا أي هدف. ولم تكن هناك إصابات. ولكن الثمانية آلاف قذيفة التي سقطت على المخيم، دمرت اغلب منازله وبيوته. وفي المساء جاءنا "سلمان"، المسؤول العسكري

للمخيم، وأخبرنا بأن محاولات للهجوم والتقدم على المخيم مستمرة، وعلينا أن نبقى مستعدين.

أذكر، أنه قبل ذلك بأيام، كانت هناك محاولات قد جرت من عدة جهات، من محور الدكوانة وباءت بالفشل، وبعدها من محور دير الراعي الصالح. ويومها اذكر كيف وصلت مجموعة مقاتلين عن طريق الجبل بقيادة "أدهم"، المسؤول العسكري للمخيم. وصلت في الثالثة صباحًا بعد أن صدّ المدافعون الهجوم على الدير، وكيف لعب وصول المقاتلين دورًا، في شد أزر المدافعين عن المخيم ورفع معنوياتهم.

كان الهجوم قد بدأ على ضيعة المكلّس من جهة المنصورية، الواقعة في التلال المشرفة على المخيم من جهة الشرق، ولكن الهجوم باء بالفشل، وأعطب للمهاجمين 6 آليات، وقتل العديد منهم. وهكذا انتهى اليوم الأول للهجوم.. وبدأ الليل هادئًا، هدوء ما يسبق العاصفة.

* الطبيب لا رس وزوجته أجنيتا

الأربعاء 23 حزيران

في هذا اليوم بدأ القصف على المخيم باكرًا جدًا في الخامسة صباحًا. وكان استمرار القصف يعني لنا، أنهم يُحضرون لهجوم وتقدم نحو المخيم. كانت خطة الانعزاليين تهدف إلى التقدم من ثلاث محاور، من المنصورية من جهة الشرق، ومن الحازمية من جهة الجنوب، ومن حرش ثابت من جهة الغرب، والإلتقاء في مصلبية المكلس، وذلك لإحكام الطوق على المخيم، وكان الهجوم في هذا اليوم عنيفًا، وبدأت الإصابات العديدة في الوصول إلى المستشفى.

كانت القوة المهاجمة تفوق قدرة المدافعين عن المخيم عددًا وعدة. ويومها نقلوا إلى المستشفى ذلك المقاتل الشجاع «علي خنجر»: رامي أل آر. بي. جي. وقد فقد بصره كاملاً من وهج القذائف، وكان من الرماة الماهرين. وكان قبل يوم قد دمر 6 آليات. امتلأ المستشفى ذلك اليوم، بالجرحى ومعظمهم من المقاتلين، مما أثر في معنويات الأهالي. وعلمنا فيما بعد أن المدافعين قد استطاعوا وقف الهجوم عند المساء. كانت المعارك والهجوم على المخيم تبدأ بالانحسار مع قدوم المساء. وتتوقف تمامًا في الليل، ليبدأ القصف الوحشي العشوائي على المخيم.

الخميس 24 حزيران

تعودت أن أترقب الساعات الأولى من الصباح، بحذر شديد. كان ذلك يعطيني فكرة عامة، عمّا سيحدث في ذلك النهار. فالقصف المتواصل، يعني أن هجومًا سوف يعقبه. وهذا يعني بالنسبة لي كطبيب العديد من الجرحى والمصابين. بدأ الأهالي يغادرون ما تبقى من الأبنية المهدمة، من جرّاء القصف، إلى الأبنية المجاورة في منطقة «راس الدكوانة»، فأغلبية أبنيه المخيم لم تعد صالحة ولا آمنة. ولم يبق فيه إلا المستشفى والملاجئ التي لا تتسع لإيواء جميع الأهالي.

وصل إلى المستشفى في هذا اليوم المقاتل "ابوجبال"، مصابًا برصاصة قناص في صدره، وكانت الإصابة كبيرة وخطرة، " تهتك كبير في عضلات الصدر والرئة اليمنى ظاهرة «. وكان في حالة صدمة نتيجة نزيف حاد. أجريت له العملية استغرقت وقتًا طويلاً، بعد إعطائه عدة وحدات من الدم. ولم أكن أتوقع انه سيعيش وذلك لخطورة الإصابة. وقد فرحت كثيرًا لتمكني من إنقاذه، وبقائه على قيد الحياة. لقد كان أبو جبال من المقاتلين الشجعان ، وينتمي إلى الجبهة الشعبية "القيادة العامة".

سقطت قذيفة على غرفة الطوارئ في الطابق الأول، أحدثت فيها فجوة كبيرة. وصلنا العديد من الإصابات، ذهبت إلى غرفة الطوارئ، وبينما أنا افحص أحد المصابين، سقطت قذيفة قرب المبنى، فتطايرت الشظايا والغبار، حتى لم اعد أرى شيئًا أمامي.. كان قبل لحظات يحيط بي أهالي الجرحى والممرضين والضوضاء، وفجأة وجدت نفسي وحيدًا مع الجريحة! وقبل سقوط القذيفة الثالثة شدّني أحد الممرضين من يدي بالقوة، إلى مكان أكثر أمانًا. وسقطت قذائف أخرى. أصبح العمل في المستشفى مستحيلاً.. فالمستشفى مُستهدف وكل رابع قذيفة كانت تسقط قربه. فمئذنة الجامع كانت هدفاً لقذائفهم.

نقلنا الأدوية والأجهزة إلى مكان آمن تحت الدرج، وبدأنا نجري الإسعافات الضرورية، وكُنّا ننتهز فرصة الليل أحيانًا لنحوّل الإصابات إلى الحسينية. وكان "احمد أورفلي"، وهو ممرض يمتاز بكفاءة عالية، يُشرف على هذه العملية، لم يعد في المخيم سيارات، لذلك كنا نجد صعوبة كبيرة في نقل الجرحى على الحمالات، لحوالي مسافة كيلومتر سيرًا على الأقدام، في الأزقة الضيقة ووسط الدمار.

كنت أفضل العمل في الطابق الأرضي، لأنّ خطوط الكهرباء قد انقطعت جميعها.. والمولّد الذي أحضرناه لم يكون بعد جاهزًا للعمل. كان الجو في الطابق الأسفل، تحت الأرض مظلمًا وخانقًا. لجأ الكثير من الأهالي، الذين تهدّمت بيوتهم إلى المستشفى، ولم يجدوا مكانًا في الملجأ. فالسلالم والممرات، وقاعة المستشفى مكتظة بالأهالي. وكان من الصعوبة، إقناعهم بالذهاب إلى الملاجئ، وتخفيف الزحام داخل المستشفى. كانوا يعتقدون أن المستشفى أكثر أمانًا، فالطبيب والممرض والدواء هنا! كنت في سريرة نفسي، أتمنى أن يبقوا هنا سالمين إن أمكن، بدلاً من ذهابهم إلى الملاجئ، ويعودون إلينا مصابين وجرحى.. ولكن كان علينا إقناعهم بالخروج من المستشفى، لتسهيل عملنا، الذي أساسًا أصبح مستحيلاً.

كنا ننتظر النصف الثاني من النهار... لأنّ ذلك حسب تجربتنا يعني بداية انحسار الهجوم، وبعد ذلك يبدأ المقاتلون بالاستعداد لهجومهم المضاد ليلاً. في حقيقة الأمر كان ليلنا ونهارنا دفاعًا، بعد أن حقق الانعزاليون تقدماً على محور المكلس. وهذه المنطقة تشكل خطرًا كبيرًا على المخيم.

الجمعة 25 حزيران

كان بقربي دائمًا جهاز راديو ترانزستور، أتابع من خلاله الأخبار والتطورات، وفجأة فكرت أية أخبار أود ملاحقة سماعها، ونحن هنا نصنع الأخبار قبل أن نسمعها !!!.... ولكن؟

بدأ الهجوم والقصف مبكرًا، وكان المقاتلون والمدافعون عن المخيم قد صدُّوا الهجوم الثاني والثلاثين..

الجو في الطابق الأسفل خانق، الجرحى والمصابون، يفترشون الأرض في ممرّات المستشفى. لا توجد كهرباء، نستعمل الشموع فقط واحياناً نسأل أين الشموع؟! جاءنا "الشبل حماده"، ومعه مجموعة من أقرانه الأشبال يحملون معهم كمية من الشموع. سألناهم: من أين لكم؟ كيف حصلتم عليها؟ أخبرونا، انهم عثروا في مستودع قريب على كمية كبيرة من مادة "البارافين"، فقاموا بتسخينها وصبوها في زجاجات بعد أن وضعوا داخلها خيوطًا، وبعد أن جفّت كسروا الزجاجات حولها فإذا هي الشموع التي يقدمونها لنا. فتية وجدوا لأنفسهم دورًا في المعركة.

الحاجةُ أم الاختراع.

السبت 26 حزيران

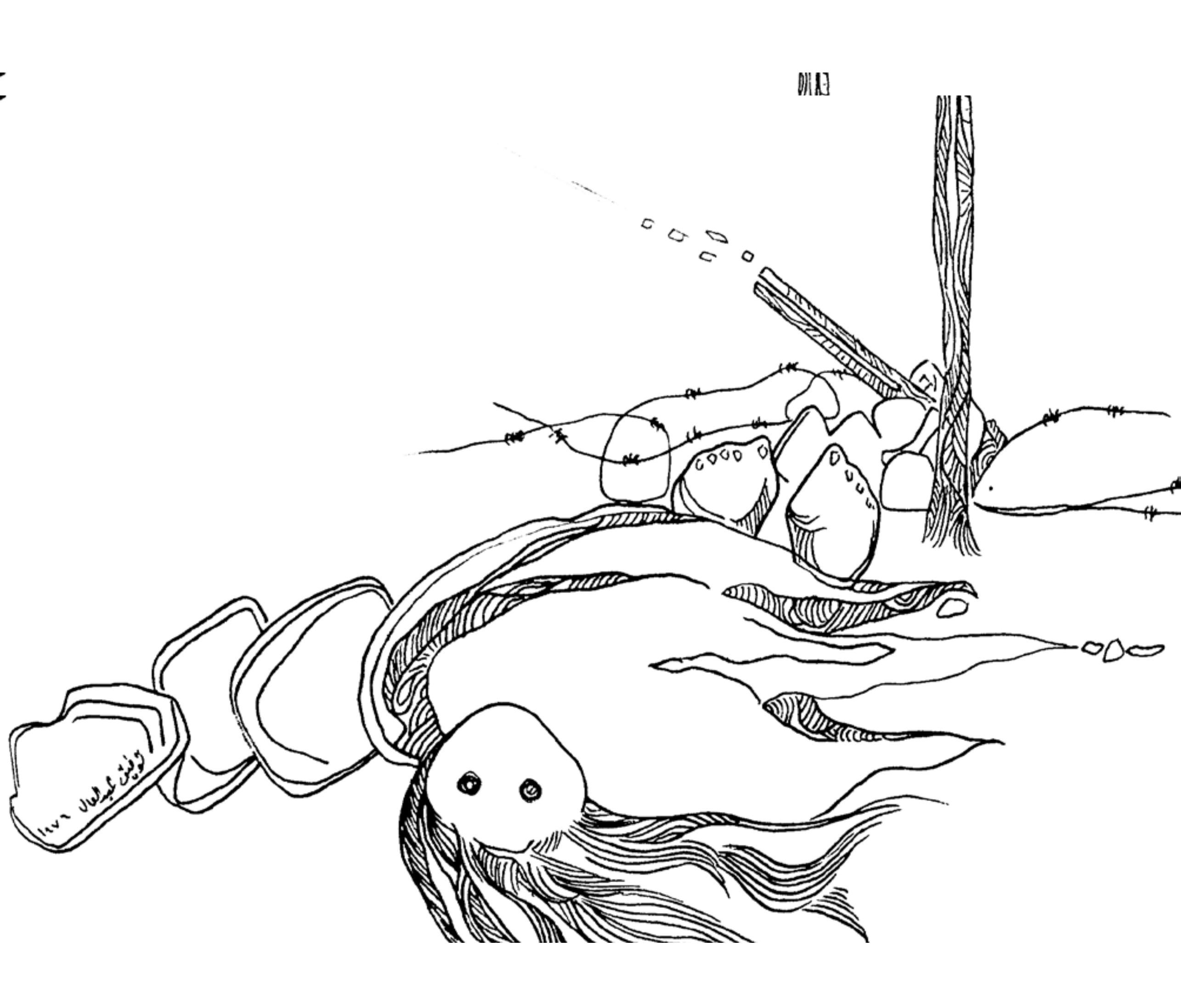
الهجوم الثاني والثلاثين يتحطم، والتلال المحيطة صامدة، تلة المير، وتله أبو إبراهيم، وتلة أبو نضال. كانت المعنويات عند الممرضين عالية جدًّا، أراهم يتوجهون إلى القسم الداخلي ويصعدون إلى الطوارئ بنشاط، ولا يعرفون التعب. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما أخبرتني الممرضة «فريال»، انهم أحضروا النقيب «بدر»، قائد جيش التحرير في المخيم في محور دير الراعي الصالح مصابًا برصاصة في عنقه، وقد اخترقت العمود الفقري. كانت حالته ميؤوس منها، أوصلوه إلى المستشفى محمولاً على لوح خشبي، أجريت له الإسعافات اللازمة، أخذت حالته في التحسن. كان طوال الليل يسأل عن أُمّه التي لم يرها منذ 9 سنوات. بعد يومين توفي النقيب بدر. أيقظتني الممرضة «فريال» في الصباح الباكر لتقول لي: إن النقيب بدر يتنفس بصعوبة، وبنفس متقطع. أسرعت إلى حيث يرقد، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. أجريت له جميع الإسعافات اللازمة.. ولكن محاولتي باءت بالفشل، لقد مات بدر ولن تراه أُمّه بعد الآن. بكيناه. أخبرتني «فريال» قصة عن النقيب بدر كيف انه جاء في احدى الليالي المظلمة وتحت القصف ودوي القذائف، وهو في حالة

قلق ويريد ممرضة لمرافقته، وفي دلك الوقت المتأخر من الليل لأنّ هناك امرأة في حالة ولادة , قرب دير الراعي الصالح خارج المخيم في منطقة خالية من السكان وهي أسرة لبنانية مسيحية. وكيف ذهبت هي والممرضة (بهاء) وساعدتا المرأة في عملية الولادة حيث وقف زوج المرأة مذهولاً وخائفًا من رؤيتهم مع ضابط فلسطيني، وكيف هدأوا من روعه. وعادوا إلى المستشفى.
في كل يوم، نفقد إنسانًا عزيزًا أو أكثر.. وضعنا جثمان بدر في تابوت خشبي، وكان قد تكدس بحفرة كبيرة جانب المستشفى حوالي ثلاثين تابوتا. وذلك لعدم توفر الوقت لدفنها، كما كنا نأمل أن نقوم بنقل الجثامين في التوابيت الخشبية، إلى بيروت الغربية لدفنها في مراسيم تستحقها في مقبرة الشهداء.

ألاحد 27 حزيران

أبو إبراهيم

كنت اجلس في غرفة الأطباء ذلك المساء، بعد يوم حافل بالعمل. اختلس وقتًا للراحة، جاءني أبو إبراهيم شدّني من يدي، وهو يقول لي : « لقد أصبت في ظهري بطلقة». أصيب وهو يسقي الورود والأزهار في الأرض، التي تحيط بالموقع حيث ينصب مدفعه الرشاش المضاد للطائرات، أصيب برصاصة قناص من حرج ثابت. تلك الورود والأزهار التي غطينا بها ذات يوم موائد الحفلة الجميلة، التي أقمناها بين أهالي تل الزعتر وأهالي جسر الباشا.
فحصت الجرح وقدّمت له الإسعافات اللازمة، ووضعته في الغرفة تحت المراقبة، لمدة ساعتين للتأكد من عدم وجود نزيف داخلي، أو مضاعفات أخرى على الرغم من أن الإصابة كانت سطحية. كان أبو إبراهيم غير مُصَدّق، ولا يريد حتى أن يصدق أنّه مصاب، وعندما غادر المستشفى، أعطيته درعاً واقياً من الرصاص. ذهب كما جاء بسريّة تامة، ولا يريد أن يعرف أحد.
كان يعرف تمامًا مكانته في قلوب الناس، وفيه يتجسد جبروت المخيم، ودفاعاته وصموده. كان كالملاك الذي يحمي المخيم. لذلك أراد كتم وإخفاء إصابته، حتى لا يؤثر ذلك في الروح المعنوية لأهالي المخيم، في وقت كان الأهالي، عندما يسمعون صوت مدفعه الرشاش، كان يعني لهم أنّ الدنيا ما زالت بخير.



ذلك كان أبو إبراهيم.. الذي طالما رأيته يأتينا إلى المستشفى لتفقد الجرحى، وكثيرًا ما زرته في موقعه على التلة الخضراء المزهرة، وأغلب المرّات يكون مشغولاً بري الأزهار أو نكش الأرض ويقول: " أنا فلاح ابن فلاح". وذات يوم أراني أقرب مكان سقطت فيه قذيفة، ويومها وعدته بإرسال نبتة شجرة صغيرة لزرعها في الحفرة التي أحدثتها القذيفة، أحضرتها له، وعندما كنت أزوره فيما بعد، كان يقول لي: " الشجرة عم تكبر، ولكن أنا شايف انو هون راح تصير غابة "، في إشارة الى كثرة القذائف.

وذات مساء ذهبت مع الممرضتين فاديا وفريال، في جولة مسائية حول المخيم، وفي طريق عودتنا مررنا على "أبو إبراهيم"، وجلسنا معه نشرب الشاي فوق التلة، وبيروت أمامنا تئن تحت قصف القذائف المنهمرة، وكنا جميعًا نتساءل: متى تتوقف هذه الحرب؟ وأخذ أبو إبراهيم يتحدث عن زيارة لعائلته في سوريا، وعن آخر إجازة زارها. وكانت تلك آخر زيارة لنا لتلة "أبو إبراهيم".

بعدها بأيام، رأيت "أبو إبراهيم"، ولأول مرة، يحمل الكلاشنكوف. كان دائمًا يحمل عصا. ويومها انتابني شعور غريب، وبأن الأوضاع ليست طبيعية. أخبرني أنّ الأوضاع حول تلته أصبحت خطرة للغاية. كنت في غرفة العمليات، أُحضّر لعملية جراحية، في البطن لفتىً صغير أصيب في طريق الجبل.

كنا سعداء، لأننا تمكّنا من تشغيل مولّد الكهرباء، والان كل شيء يعمل: الإضاءة، المكيّفات، جهاز الأشعة، البئر الارتوازية ومضخاتها، ووسط هذه الأجواء، جاءنا الخبر الحزين.. لقد استشهد أبو إبراهيم. كان صوت مدفعه الرشاش، يشيع الأمان في قلوب أهالي المخيم..

كالزغرودة، وكأغنية جميلة. ومع الخبر، ساد صمت ثقيل. فجأة يسكت المدفع !!. المعارك ما زالت مستمرة، والقذائف تتساقط على المخيم. لم يُصدّق الخبر أحد. نزل الخبر على الجميع نزول الصاعقة.. أصيب الجميع بما يشبه الانهيار، تركوا أعمالهم.. الممرضون والممرضات أجهشوا بالبكاء بحرقة، صدقت أنا الخبر لأن كل شيء في ذلك الحين كان قابلاً للتصديق. إنّ الأجواء حزينة، كانت الساعة حوالي الثامنة مساءً، وكي أخرجهم من بحر دموعهم وحزنهم، طلبت من الجميع المباشرة بعملية تنظيف للمستشفى، علّ ذلك يخفف من وطأة الجو الحزين، قاموا بها وسط الدموع والأحزان.

وكان أن ذهبت الممرضة «آمنة» إلى التلة، وعادت بالاتفاق مع « طه»، لتخبرنا أنّ "أبو إبراهيم" ما زال حياً، وأنها شاهدته على التلة. وانقلب الجو في المستشفى، وعلت الابتسامة ثانيةً على من صدقوا الخبر. وسط هذه الأجواء كنت في المختبر عند جميلة، مسؤولة المختبر، أعطي من دمي، ذلك أن فئة دمي تشابه فئة دم الفتى الذي سأجري له العملية، كانت العملية معقدة، لأنه وصل إلى المستشفى بعد ثلاثة أيام من إصابته، كان الأمل في نجاح العملية ضئيلاً ولكن كان من الصعب إقناع أهله بذلك. ومع بزوغ الفجر

كنت قد انتهيت من العملية. جلست بعد العملية، في غرفة الاستراحة بقسم العمليات، وإذا الممرضة بهاء، قد أحضرت قهوة الصباح مع سيجارة، لتعلن بذلك بداية يوم جديد. ولكن هذه المرة بدون "أبو إبراهيم"... علمنا بعد ذلك انه في تبادل لإطلاق القذائف، دمر أبو إبراهيم مدفعين للانعزاليين، ثم أصيب بصاروخ مزقه أشلاء، ومع استشهاد "أبو إبراهيم"، انتقل الوضع الاستراتيجي للمخيم إلى مرحلة جديدة مليئة بالمفاجآت.. استشهد أبو إبراهيم، لكنه حيّ في قلوب أهالي المخيم، وصمد المخيم بعد استشهاد "أبو إبراهيم"، 45 يومًا.

ويظل أبو إبراهيم شبه أسطورة بالنسبة للأهالي. أحال المنطقة المحيطة بموقعه، إلى حديقة من الزهور والورود، فأحرقتها مدافع الانعزاليين وقذائفهم، وبدل أن تتناثر الورود على جسد أبو إبراهيم تناثرت أشلاؤه على تلك التلة لترويها من دمه.

الاثنين 28 حزيران

كنت آخذ بعض الدقائق من الراحة في غرفة الأطباء، أحاول النوم وأعاني من زكام. دخلت الممرضة «فاديا سالم»، ممرضة قسم الطوارئ لتخبرني: يا دكتور، رفعوا علمهم على تلة المير! وتلة المير تربض فوق المخيم، وتشرف على كامل مساحته، ومن يحتلها يضمن السيطرة عليه. وكانت، المعارك في الآونة الأخيرة، تدور حول التلة لاحتلالها والوصول اليها.

لم أستطع مغادرة السرير من شدّة الإعياء. صعد الدكتور عبد العزيز ليستطلع الأمر، ومن نافذة غرفة الطوارئ، شاهد المعركة الدائرة فوق التلة. وكان الأهالي يشاهدون المعركة ووقائعها حية، بأعصاب مشدودة! فكيف ستنتهي المعركة؟ مرّت نصف ساعة.. ساورتني خلالها أفكار كثيرة، أن يحتلوا التلة هذا يعني انهم سيسيطرون بنيرانهم على ما تبقى من طرق المخيم.. وهذا يؤثر على المستشفى بالذات. ولكن ما حدث بعد ذلك، هو أن معركة بالسلاح الأبيض نشبت على التلة. وتمكن المدافعون عن المخيم من دحر القوات الانعزالية، وأزالوا علمهم الذي رفعوه، وشعرنا جميعنا أن كابوسًا أزيح عن صدورنا، عندما اختفى العلم من فوق التلة.

وبعد لحظات جاؤوا، (بأبي نضال)، مسؤول مدافع الهاون، مصابًا في رجله بشظية. وأبو نضال، كان من رماة الهاون المهرة. مسؤول عن القاعدة التي حولها إلى مركز للاكتفاء

الذاتي، زرع الخضار وربّى الدواجن. ومع حلول الساعة الخامسة مساءً، كانت القوات الانعزالية تنسحب مهزومة من فوق تلة المير. ولكنني بعد أصابة أبو نضال شعرت بأن أعمدة المخيم الدفاعية، أصابها الخلل.

الثلاثاء 29 حزيران

كانت الأخبار متضاربة حول سقوط مخيم جسر الباشا، وهو مخيم قريب من مخيم تل الزعتر، تفصله الطريق المؤدية إلى الجبل، وعدد سكانه لا يتجاوز الثلاثة آلاف من الفلسطينيين. فشلت القوات الانعزالية في اقتحامه رغم العديد من محاولات الهجوم عليه.
كنا في المستشفى نُشغل مولد الكهرباء، ساعات معدودة للاقتصاد في استهلاك مادة المازوت، التي لم تكن متوفرة بشكل كاف، ونقوم بتشغيله في حالات الضرورة القصوى، لتشغيل جهاز الأشعة والمختبر، وتشغيل المكيفات وخاصة في أقسام الطابق السفلي، حين نقوم أيضًا بالمعاينة والتغيير على الجروح. كان صوته ليلاً كهدير محركات الباخرة، التي تمخر عباب البحر، وخطورة تشغيله أنّه كان يكشف مكان المستشفى ليلاً، وكثيرًا ما كانت القوات الانعزالية تطلق القذائف باتجاه مكان المستشفى، حيث يسمعون هدير المولد الكهربائي.
بدأت كميات المصل تتناقص، ولم يبق منها إلا القليل.. القليل. وكان علينا أن نتصرف بطريقة ما. درست الموضوع مع ممدوح وصبحي وخالد، وأخبرتهم بضرورة تحضير، محلول الملح الفيزيولوجي بطريقتنا، ومعتمدين على ما هو متوفر لدينا من إمكانيات. جمعنا كل زجاجات المحاليل المستعملة والمختومة، على اعتبار أنها معقمة من الداخل، وبدأ ممدوح يزن بميزان حساس في المختبر، كمية ونسبة الملح المطلوبة، وقمنا بتعقيم مضاعف للزجاجات بعد ملئها بالمحلول، وبهذا تمكّنا من التغلب، ولو جزئياً على النقص في هذا المحلول. ولكن مع الوقت، والطلب المتزايد وعدم تمكننا من التعقيم لعدم وجود كهرباء، لم يعد بإمكاننا الاستمرار في تحضيره، أو تصنيعه.
كان خالد وصبحي شعلة في النشاط. كانا يُعتبران من رجال المهمات الصعبة. رغم أنهما كانا في السادسة عشرة من عمرهما، وكانا يعملان في المواقع الأمامية، واستدعيناهما إلى المستشفى للمساعدة في أعمال بنك الدم. وقد شكلا بعد أن انضم إليهم الشاب «علي»، فريقًا كاملاً لبنك الدم. استوعبوا كل ما طُلب منهم بسرعة فائقة، تعلموا كل ما هو ضروري، وقاموا بكل ما يلزم من تحديد فئة الدم، وحتى إعطاء الدم. ونجحوا في كل ذلك.

الأربعاء 30 حزيران

ركزت القوات الانعزالية هجومها على جسر الباشا. في هذا اليوم، جاءت سيارتان تحملان جريحين من جسر الباشا أحدهما «مصطفى إكي». مصطفى الأسطورة الذي بنى وحده، خط تحصينات في منطقة القلعة طوله حوالي 300 متر بدشمه وخنادقه. لم أعرفه عند وصوله إلى المستشفى، لم أستطع تمييز وجهه الشاحب، كان مصابًا بأربع رصاصات في فخذه وخاصرته. قال لي: "يا دكتور لليوم التاسع لم أذق طعم النوم. ولم آكل أبدًا». أعطيناه زجاجة محلول الملح الأخيرة في المستشفى. وتبرع، خالد ابن السادسة عشر بدمه لمصطفى، لقد أصرّ على ذلك، على الرغم من معارضتنا، بسبب صغر سنّه. وعاش مصطفى إكي، ساعة ونصف في المستشفى، ثم انضم إلى قافلة الشهداء المدافعين عن المخيم.

عندها عادت بي الذاكرة إلى الوراء، يوم أصيب برأسه ووجهه في معركة حرج ثابت، وأجريت له عملية ناجحة في وجهه. أعدتُ له ملامح وجهه كما كانت، وأصبحنا بعدها صديقين، واخذ يروي لي قصة حياته. كيف ترك كل شيء وجاء إلى تل الزعتر، ومصطفى إكي كان نجارًا ماهرًا، ورياضيا مميزًا، نقل عشقه للرياضة إلى شباب المخيم، فدرب جيلاً منهم في نادي المخيم. إذ كان من عشاق كرة القدم، فصار في النهاية، وعند حصار المخيم مقاتلاً عبقريًا. اذكر بعد خروجه من المستشفى، والذي تزامن مع انفراج أمني، أنه سافر إلى قطر، لزيارة أهله ولكنه فاجأنا بعودته بعد أسبوع واحد. عاد مصطفى لأنه كما قال لي: أصبحت أعشق تل الزعتر، ولا أريد أن أكون بعيدًا عنه.. نعم عشقه حتى الموت. فعاش ومات من أجله. عند الغروب كانت تلة المير قد سقطت بأيدي القوات الانعزالية، وذهبت لأتابع الأمر عبر نافذة غرفة الطوارئ. رأيت علمهم فوق التلة، انتظرت إزالة العلم، ولكن انتظاري طال هذه المرة وبقي العلم، وشعرت في قرارة نفسي أنّ الوضع، أصبح خطيرًا جدًا.

وصلتنا الأخبار، بأنّ مخيم جسر الباشا، ومنطقة القلعة قد سقطا في أيدي الانعزاليين.. وكانت هناك أخبارعن مجازر ارتكبت، وعمليات قتل رهيب.. ومرّت أمام ناظري ذكريات الأهالي ممن عرفتهم هناك. تذكرت «الياس نصراوي»، وذلك الشاب الذي أصيب بشظية في رئته وكيف أجريت له عملية، وحدثت مضاعفات، "التهاب صديدي"، في صدره اضطرته للمكوث في المستشفى مدة أطول، الى أن تحسنت حالته، وعمل متطوعًا في الهلال بعد ذلك. تذكرت د. جورج، وتذكرت «ظريفة» التي أصيبت في ساقها، وكيف أنها كانت خائفة جدًا من تشوه ساقها نتيجة الجرح الكبير وطمأنتها، وكانت راضية تمامًا عن

العملية ونتائجها. تذكرت «سهيلة» والفتيات الأخريات، والشبان الذين عرفناهم وعملوا معنا كمتطوعين.

لقد أثر سقوط مخيم جسر الباشا، ومنطقة القلعة في المعنويات لدينا، لِما يمثلان من أهمية لحماية ظهر المخيم، ولم تبقَ إلا منطقة المصانع، إن استولوا عليها، أصبح الطوق مُحكمًا من كافة الجهات.

في تلك الليلة.. جاء من يقول لنا، إنّ سلمان وأدهم، قد أصيبا خلال جولة لهما على المواقع وتفقد المقاتلين. سبقني الدكتور عبد العزيز، ليرى ما حدث. كان سلمان قد أصيب بشظية في منطقة الصدر، ولكن إصابته كانت سطحية. أما إصابة أدهم فكانت أكبر.. لقد كسرت عظمة الكوع، أجريت له العملية، ووضعت الجبس، ونام ليلتها في غرفة العمليات، تحت المغسلة، في غرفة الأطباء حيث كنا ننام جميعًا مع الممرضين والممرضات.

غرفتنا كانت قد اكتظت بالجرحى. هناك أبو نضال، مسؤول مدفعية الهاون وقد أصيب برجله. وخلال إجرائي العملية له وكان تحت البنج الموضعي، انهمرت الدموع من عينيه ليقول لي: يا دكتور أنا خائف الشباب يضيعوا! كان يقصد مجموعة الأشبال التي دربها في قاعدته. فقد كان الأب والأخ بالنسبة لهم، لكنهم تصرفوا بمسؤولية بعد إصابته، وأبلوا بلاء حسنًا.

على السرير المجاور لأبي نضال، كان يرقد الملازم «زياد»*، ذلك الشاب الأشقر، صاحب العينين الخضراوين. كان ضابط الارتباط، وساعدنا كثيرًا في إيصال الجرحى إلى مستشفيات بيروت الغربية. وكان قد أصيب بشظية، أتلفت احدى خصيتيه، أجريت له عملية، اضطررت لاستئصال الخصية، نتيجة تهتك الأنسجة والنزيف الحاد. وهناك «العينا» المقاتل الجيد، وكان مدرسًا، أصيب في عينيه وفقد إحداهما، وأصيبت الأخرى. وهناك جرحى آخرون، وكثيرًا ما كنت أتعثر بأحدهم في الظلام الدامس، حتى الشمعة، كنا أحيانًا نفتقدها، فعددها محدود ولا نستطيع إشعالها في كل مكان.

* إسمه الحقيقي مازن المبسلط وهومن عائله فلسطينية ميسورة عمل في اوروربا. قُتل بطريقة بشعة في منطقة بعبدا حيث عُلق وصُلب (المصدر ناصر دجاني)

الخميس 1 تموز

القصف شديد منذ هذا اليوم. وكنت سهرت في الليلة الماضية حتى الساعة السادسة صباحًا. كنت متمدداً على فرشة الإسفنج، أغطي وجهي بشرشف ابيض. خوفًا من لسعات البرغش الذي يطاردنا داخل المستشفى. وما أن غفوت قليلاً، إلا وسمعت صوت «فاديا» يوقظني. لقد أصيبت قريبتها في صدرها، وأنها تعاني من نزيف صدري، أيقظتني بصعوبة من شدّة الإعياء والتعب. صعدت إلى الطابق الأول وأجريت لها العملية، رغم تعبي الفائق ونعسي الشديد.. وضعت لها أنبوب صدري، لسحب الدم النازف، وأعطيناها دماً عوضاً عمّا نزفته.. حاولت العودة للراحة من جديد ولكن ذلك كان مستحيلاً فالمصابون والجرحى، يتوافدون على المستشفى، وكنت ود. عبد العزيز، نعمل معًا في غرفة العمليات.

جاء عبد المحسن، المسؤول السياسي، لزيارة أدهم في المساء. وضع بندقيته جانبا. ادهم يئن من أوجاعه متكئًا على الحائط، ويده التي في الجبس وضعها على وسادة بجانبه. أخذنا نتداول الحديث، ود. عبد العزيز، يغطٌّ في نوم عميق من جرّاء الإرهاق، والممرضات يجلسن في زاوية الغرفة. أخبرنا عبد المحسن أن القيادة اتصلت وأخبرتنا أنّ هناك عرضًا لاستسلام المخيم، حتى لا تحدث مذبحة إن اقتحمته القوات الانعزالية، ولكن القيادة رفضت العرض. وكان الرفض منسجمًا مع الأجواء السائدة في أوساط أهالي المخيم والمدافعين عنه. كلمة استسلام لم تكن واردة في قاموسهم آنذاك.

الجمعة 2 تموز

كانت الساعة تقارب الحادية عشًر ليلاً.. عندما خرجنا الى غرفة جهاز اللاسلكي. كان سلمان يجلس وحيدًا. وقد خلع قميصه من شدّة الحر، فبانت الضمادة على صدره نتيجة الإصابة.. وأمامه جهاز لاسلكي صغير. خرجنا لنعرف آخر الأخبار، تحدثنا قليلاً، ثم اتصل بالقيادة، ويومها تحدث «أبو أياد». استدعى القادة المحليين لكافة الفصائل الفلسطينية، وتحدث معهم. على الحائط، فوق جهاز (الركال) اللاسلكي.. كانت هناك ملاحظة كتب عليها. «كل ما يسمع أو يقال في هذه الغرفة يبقى سرًّا». لذلك لن أتكلم عن كل ما دار في هذه الغرفة ذلك اليوم، بين أبو أياد والمسؤولين المحليين. كل ما اعرفه، أن الصمود هو نصر لنا جميعًا. عُدت أنا وعبد العزيز، إلى المستشفى وسط دوي القذائف، ورصاص القنص الذي كان يدوّي ويقطع سكون الليل، الذي لم يعرف السكون منذ أسابيع.



حدث في هذا اليوم هجوم على محورين، محور جبهة التحرير العربية، ومحور الجبهة الديمقراطية في رأس الدكوانة. وقد أصيب المسؤول العسكري للجبهة الديمقراطية الشجاع «صالح أبو النعاج»، بشظايا قذيفة، وصل على أثرها إلى المستشفى وهو في الرمق الأخير.. الشظايا تغطي كامل جسده، في صدره وبطنه، تبرعت الممرضة «فريال» بالدم، حاولنا إخراجه من حالة الصدمة، وإنقاذ حياته.. لكن صالحًا، فارق الحياة.
كانت هناك عملية أخرى، في غرفة العمليات، وكانت الساعة تقارب الثانية ظهرًا. وسمعت من يقول، إنّ القوات الانعزالية قد احتلت محور الجبهة العربية، وهو لا يبعد عن المستشفى أكثر من 250 مترًا. كان الموقف حرجًا للغاية. وهنا اذكر، أن دورنا أصبح أكبر من أن نكون أطباء فقط. خرجت وعبد العزيز بثيابنا الجراحية الخضراء.. تمنطق كل منّا بحزام وجعب الذخيرة وحملنا السلاح!!! وكان لا بُدَّ من الدفاع عن الجرحى الذين يغصّ بهم المستشفى، واغلبهم من المقاتلين. فالدفاع عنهم أصبح مسؤوليتنا، واذكر أننا قبل أن نخرج، مررنا نتفقد الجرحى وهم في أسرّتهم، فمنهم من يده في الجبس ومنهم من ساقه في الجبس، ومنهم من ساقه معلقة، ومنهم من إصابته أكبر من ذلك.. ورأيت الدموع تنهمر من عيونهم، كأنما شعروا أن المخيم قد خلا من المقاتلين والرجال، حتى يحمل الأطباء السلاح. وفي هذا الجو المؤثر خاطبني المقاتل، إبراهيم المنشاوي. قائلاً: "انسحبوا انتو يا دكتور واتركوا لنا السلاح وسندافع عن أنفسنا".. بينما طلب آخرون نقلهم إلى المواقع الأمامية، ليستأنفوا القتال، ولكن معظمهم في الجبس لا يستطيعون حراكًا!

خرجنا الدكتور عبد العزيز وأنا من المستشفى بثيابنا الجراحية الخضراء، نحمل السلاح! فكان منظرًا مؤثرًا لكل من شاهدنا من الأهالي، ولنشاهد حشدًا من المقاتلين قد تبعنا، حيث ذهبنا إلى غرفة اللاسلكي. وهناك علا صوتنا الدكتور عبد العزيز وأنا، وتكلمنا بلهجة جافة على من كانوا من القادة المحليين، وأن عليهم أن يتصرفوا! وعدنا باتجاه الجبهة، حيث المعركة، ولكن المقاتلين منعونا من ذلك، وأدخلونا المستشفى، ليتابعوا طريقهم نحو المواقع الأمامية، تذكرنا في تلك اللحظات مهمتنا الطبية، كم هي مهمة في تلك اللحظات في علاج الجرحى والمصابين، فقررنا العودة إلى المستشفى.. وفجأة نشبت معركة ضارية، تمكن المقاتلون المدافعون عن المخيم خلالها من استرجاع الموقع الذي كانت القوات الانعزالية قد احتلته.. وكُنّا خلال تلك الفترة، نتابع حالات الجرحى والمصابين، ونقوم بتحصين المستشفى. وتوزع الشباب القادرون على حمل السلاح على مداخل المستشفى. ومرّت لحظات، كان الهدوء مُخيمًا، كان هدوءً من نوع آخر.. الشباب يترقبون على الشبابيك والنوافذ بأسلحتهم.. وعند مدخل المستشفى جلس أبو نضال، والملازم زياد المصابين، على ركبتيهما، وكلاهما يحمل في يده مسدسًا وفي الأخرى

قنبلة.. كان صوت الرصاص والقذائف يقترب منا، مما يوحي، وكأن القوات الانعزالية ستدخل المستشفى خلال لحظات. وفجأةً وصل بعض المقاتلين وقد استطاعوا استعادة الموقع، وصلوا يحملون معهم بعض أسلحة القوات الانعزالية وعَلَمَها الذي كانت قد رفعته فوق الموقع عند احتلاله.

أصبح همُّنا يتركز على تحصين الدفاعات حول المستشفى للدفاع عنه وعمَّن فيه.. مما حوّله إلى شبه غرفة عمليات عسكرية. استعنا بخبرة ثلاثة ضباط من حركة فتح، كانوا من بين الجرحى في المستشفى. وهكذا اختلط العمل الطبي بالعمل العسكري رغم انفنا، فالرغبة في الحياة والدفاع عن المخيم وأهله، حولت كل فرد منا إلى مقاتل، بالإضافة إلى عمله، سواء كان طبيبًا أو ممرضًا.

بدأ الأطفال يجمعون لنا الزجاجات الفارغة، وبدأ الممرض «ممدوح» يصنع قنابل المولوتوف. أما صبحي وخالد فقد أحضرا بعض السلاح، والمقاتلون من الجرحى يزودوننا بخبراتهم. كُنّا نقوم بكل ما نستطيع من استعدادات، إذ كان الإحساس أن الهجوم الكبير، على المستشفى يمكن أن يحدُث في أية لحظة.

لم يعد يفصل القوات الانعزالية عن المستشفى، سوى ملعب كرة القدم، حيث كان الشباب والأطفال يلعبون فيه وقت السلم. في المستشفى كان من ضمن الجرحى المقاتل «أبو جبال». كنت أجريت له عملية في صدره قبل وقت غير قصير، وكانت حالته قد تحسنت. وكان من الخبراء في زرع شبكات الألغام. ذهبت إليه حيث يرقد، وخاطبته: أبو جبال:" هل تستطيع أن تنسى أنك جريح، وتفكر في طرق الدفاع عن المخيم؟ " حاول القفز من سريره قائلاً: لعيونك وعيون المخيم يا دكتور. ضمدوا الجرح، واربطوا لي حزاما على صدري وأريد من يساعدني في حمل الألغام.. ولكن كان علينا الانتظار حتى الليل لنقوم بهده المهمة.

كانت تحوم في خاطري أفكار كثيرة، حول المستشفى وإمكانية استمرار العمل فيه، فالمستشفى بكامله صار تحت مرمى نيران القوات الانعزالية، ويتعذر نقل أي مصاب أو جريح إليه في النهار. والمستشفى أصلا مزدحم بالجرحى والمصابين، فماذا لو ازدادت أعداد الجرحى والمصابين؟ الجو خانق.. والظلام دامس، في الطابق السفلي.. وأصبحنا في الخط الأول. دُعينا في المساء لاجتماع القيادة العسكرية، في مكتب الجبهة الديمقراطية، لمناقشة الأوضاع واتخاذ القرارات المناسبة. خرجنا من المستشفى في الحادية عشرة ليلاً، متجهين نحو غرفة اللاسلكي التابعة لحركة فتح، رافقنا، سلمان ومشينا نحن الثلاثة.

في الطريق كُنت أرى التحصينات والمتاريس والدفاعات التي أقامها المقاتلون، وخرجت من جو بيوت المخيم المهدمة كلياً، نحو تلك البنايات القريبة، شعرت بالثقة والأمان ممَّا جعلني أقول لعبد العزيز: "ممكن الصمود سنة وسنتين".

لقد رفعت هذه الأبنية والمتاريس الكثير من معنوياتي.. التي كانت متدنية ونحن في أنقاض المخيم.. وكان الاجتماع يضم قادة القوات المشتركة جميعًا. وكان اتصال مع قيادة العمليات المركزية في بيروت الغربية. وكان التصور في الاجتماع أنَّ الهجوم على المخيم، سيبدأ في الغد من جهة ملعب كرة القدم، وكنا جميعًا نناقش خطة الدفاع والتصدي لهذا الهجوم، وكيف سنقاوم بأسلحة فردية، آليات ودبابات ومدفعية!

وكان التفكير يتجه نحو زرع الألغام، ولا بُدَّ من انتظار الليل.. ولكن لسوء الحظ تمّ قصف «بناية كندير» المؤلفة من أربع طبقات وفيها منجرة، كان يتمركز فوقها قناصة، والنتيجة حريق كبير شب في البناية. وأحال الليل إلى نهار.. مما جعل مهمة زرع الألغام مستحيلة. وبينما نحن جالسين بانتظار ما سيحدث عاد أبو جبال مع الشباب محبطين، يسيطر عليهم الغضب والانفعال لعدم تمكنهم من إتمام المهمة، دخل المقاتل، أبو الوليد، يرافقه المقاتل «الماو». كان أبو الوليد منفعلاً جدًا.

تشاورنا مع، سلمان حول إمكانية إخلاء المستشفى ونقله إلى منطقة رأس الدكوانة حيث يتمركز معظم الأهالي، وسط العديد من البنايات، مما يجعل عملنا أكثر أمانا. ولكنه رفض الاقتراح بحجة أن ذلك يمكن أن يؤثر سلبًا على الناحية المعنوية للأهالي، وهذا يعني أن أمامنا خياران: إما البقاء والتحصن مع ما في كل ذلك من مخاطر.. وإما الانتقال إلى مكان أكثر أمانًا وهذا ما يعطينا نفسًا أطول.

جلسنا بعد عودتنا إلى المستشفى، نتدارس الأمر ونتشاور في غرفتنا أنا وعبد العزيز. وكانت فاديا تجلس بجانبي.. ومرّت لحظة من تلك اللحظات التي قلما يعيشها الأنسان، وقلت لفاديا بعد أن نظرت إلى ساعتي، مع إحساس عميق أننا سنعيش ساعات محدودة، فلنودع بعضنا البعض، ومرّ أمامي شريط الحياة سريعًا، طفولتي والمدرسة والجامعة وموسكو.. وأمنيتي في أن أصبح طبيبًا.. وصورة أمي.. لا تفارقني، كانت لحظة وجدانية مؤثرة، ومرّ شريط الأصدقاء، وأيقنت أنّه القدر ولا مناص من ذلك. وبعد لحظة صمت.. نظرت إلى عبد العزيز لأقول له: الأفضل أن نبدأ بنقل الجرحى.

كانت الساعة الثانية والنصف صباحًا. ولم يبق على انبلاج الفجر إلا ساعة ونيف. علينا أن ننقل أكثر من ثمانين جريحًا. ونمشي مسافة مائتي متر أو أكثر لإيصال الجرحى والمصابين، إلى أماكن أكثر أمانًا بعد أن أمنّا لهم مكاناً مع الأهالي، بدأنا بإنجاز المهمة في صراع مرير مع الوقت، وذلك قبل طلوع النهار. وبالتالي نتعرّض للقصف والقنص. وفي تلك الليلة الهادئة، بدأنا ننزع الأبواب ونستعملها حمالات، وكذلك السلالم والفرش والكراسي لنقل الجرحى. قمنا بالعملية بهدوء وبدون جلبة، ومع خيوط النهار الأولى كنا

قد نقلنا جميع الجرحى، وما نحتاجه مما توفر من معدات جراحية، وأدوية ومواد طبية. شعرنا بالأمان مجددًا بين الأهالي. والنفس الإنساني له دفئه دائمًا، ويبعث على الشعور بالأمان والاطمئنان.

كانت الساعة السادسة صباحًا عندما انتهت والدة بهاء، ممرضة العمليات من صنع الفطائر، لتقدمها لنا مع الشاي. تناولنا الفطور، وبدأنا نبحث عن مكان لنقيم فيه مركزاً للطوارئ، وغرفة للعمليات. ووقع الاختيار على طابق أرضي في بناية على الطريق، التي تفصل المخيم عن «راس الدكوانة». وكانت مقرًّا «للحزب التقدمي الاشتراكي». أخلى لنا الشباب المركز المكوّن من أربع غرف. وبدأنا بتجهيز المكان، بما أحضرناه معنا من أجهزة، وأدوات طبية وأدوية. حدّدنا غرفة للعمليات الجراحية، وغرفة للعناية الفائقة، وأخرى للجرحى والمصابين. أما الغرفة الرابعة فكانت لاستراحة الأطباء والممرضين والممرضات. وهكذا تحول المستشفى إلى ثلاث عشرة وحدة طبية، موزعة بين الأبنية، ومركز الطوارئ، وبدأت مرحلة جديدة من عملنا وحياتنا.

أما في المستشفى الذي أخلينا، فلم يبق إلا الممرض «محمود شحرور» مع حالات الغرغرينا، التي تعذر نقلها وأبقيناها في المستشفى لتكون معزولة عن باقي الإصابات. وحالتين تيتانوس "كزاز"، كنا قد فقدنا الأمل من علاجهم. وهكذا استمر عملنا الطبي في ظروف صعبة للغاية. ننتظر المجهول، الذي نحاول توقعه، وفي الوقت ذاته نحاول الصمود في وجهه.

الجمعة ٣ تموز
أبو السعيد

انتقلنا إلى المكان الجديد، وكان نقطة وسطية بين الثلاثة عشر مركزًا، وزعنا الجرحى عليها. قدّم الأهالي مساعدات كبيرة، حيث أخلوا العديد من الملاجئ والطوابق الأولى من الأبنية كي نستعملها. الطريق أمام الطوارئ مكشوفة على تلة المير، وكنا نقطعها جريًا لتجنب رصاص القناصة. استعملنا مدخل البناء للعلاج وللغيار على الجروح. الغرفة التي أعددناها للعمليات كانت مظلمة حتى في وضح النهار، وذلك لموقع الغرفة في نقطة وسطى من البناء، حيث لا يدخلها النور. وضعنا طاولة. ونصبنا ستارًا كُنا نجري خلفه العمليات. وكانت مهمة أحد الممرضين هي حمل الإضاءة على الجروح عند إجراء العمليات، إذ لا كهرباء ولا إنارة من أي مصدر. كنا نحصل على البطاريات من جهاز اللاسلكي. جاء الأستاذ عمر أورفلي، «أبو السعيد"، تلك الشخصية النشيطة والظريفة، والذي كان يقوم بعمل تطوعي وجماهيري كبير، وخاصةً في المجال الصحي واللجان الصحية في المخيم، وأحد الذين كانوا يساعدوننا في تدبير الأمور. أحضر لنا الأسرة والفراش، وكنا قد أطلقنا عليه اسم "رجل المهمات الصعبة"، وهو معلم مدرسة. كان بقامته الرشيقة والنحيفة، ونظاراته الطبية وأنفه الطويل وروحه المرحة، حيث كان يُضفي جواً من التفاؤل عندنا كلَّما حضر، كان أحد معالم المخيم. قام "أبو السعيد"، بوضع أكياس الرمل على مدخل الطوارئ، وحول الشبابيك وذلك للحماية تفاديًا من شظايا القذائف..

كانت السجائر قد انقطعت في المخيم وأصبحت هم المدخنين، وكانت السيجارة الواحدة تدور عليهم من يد إلى يد. لم أكن من المدمنين على التدخين حيث أنني كنت أدخن. وكنت بين فترة وأخرى احصل على سيجارة من أحد المقاتلين، لاعتقادهم أن ذلك يساعدني في عملي. كان أبو السعيد يأتي دائمًا يسأل عن سيجارة، التي كثيرًا ما كنا نتقاسمها.

كان أبو السعيد، دائم الحركة بين الجهاز اللاسلكي ومركز الطوارئ، والمواقع الطبية الأخرى. يأتينا بآخر الأخبار. جاءني ذات يوم بآخر خبر: " أن الأهالي أصبحوا يدخنون

أوراق العنب بعد تجفيفها ولفها، في الورق العادي وأوراق الجرائد" وبعد أيام جاءنا قائلاً: «اليوم يا دكتور الناس يدخنون الشاي" ومرة أخرى: "واليوم يا دكتور آخر موضة هي القمبز" ولقد راج في المدة الأخيرة تدخين «القمبز». واستمروا كذلك، حتى انتهاء الحصار.

أحضر أحد الممرضين، راديو ترانزستور صغيرًا، وكنا نستعمله لسماع أخبار العالم والمخيم، وكنا نستعمل بطاريات أجهزة اللاسلكي عندما تحين مواعيد نشرات الأخبار.
كنا قد انتعشنا قليلاً، وراودنا بعض الأمل عندما سمعنا من "صوت الثورة الفلسطينية"، أنَّ القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة تستعد لاقتحام قرية "مونتي فردي" لفك الحصار عن المخيم، وفتح الطريق المؤدية إليه. كان ذلك قبل أيام، وانتظرنا طويلاً ولكن شيئًا ما عطل الخطة. وتضاربت الأخبار حول الأسباب.

السبت 4 تموز

استقبلنا في هذا اليوم حالات كثيرة، وكنا بعد العلاج نقوم بإخلائها إلى النقاط الطبية المتفرقة، لنتمكن من استقبال الحالات الجديدة، التي كان عددها يتزايد يوماً بعد يوم، وهمُّنا كان توفير مكان الجرحى الجدد، فقد كثر عددهم، وكان أبو السعيد يساعدنا في ذلك.
كنا الدكتور عبد العزيز وأنا، نتناوب المرور والقيام بجولة على النقاط الطبية لزيارة الجرحى، والإشراف على جروحهم، وكانت جولاتنا محفوفة بالمخاطر. وعندما كنت اهم بالخروج، يتبعني الشاب نزار، حاملاً رشاشه، ليرشدني على أسهل الطرق، وأكثرها أمانًا، كي اسلكها، وينصحني أين ينبغي أن اخفض رأسي، وأين علي، أن أركض مسرعًا.
كان «نزار شحرور»، طالباً في التاسعة عشرة من عمره، طويل القامة ووسيمًا. علّمناه ودرّبناه على إجراء التحاليل المخبرية، وعلى أعمال بنك الدم. وكان دائمًا يرافقني في جولاتي وزياراتي للجرحى. أصبحت كافة الطرق غير آمنة نهارًا من القنص والقذائف، ولذلك عمد المقاتلون الى فتح ثغرات في جدران الأبنية، حتى نستطيع التنقل من مكان لآخر، دون التعرّض لرصاص القنص.
كان الممرض محمود، يقوم برعاية الجرحى والمصابين في المستشفى. ويأتينا يوميًا بالتقارير الطبية، ليخبرنا عن أحوال المرضى في المستشفى، وأعني مرضى الغرغرينا والكزاز، ويعود إليهم ببعض التموين والمواد الطبية. في معظم الأحيان لم يكن هناك متسع من الوقت لزيارتهم، ونكتفي بما يقوم به محمود، وهو الممرض المتمرس، وصاحب

الخبرة الغنية في مجال التمريض..
عادة عندما يحلّ الظلام تهدأ حدة القصف والاشتباكات. ويبدأ نضال الأهالي للحصول على الماء.
قبل أيام وضمن حملتهم الهمجية، قامت القوات الانعزالية بنسف الأنابيب الرئيسية، التي تزود المخيم بالمياه، ولم يبق سوى مصدرين: بئر ارتوازية، والمصدر الثاني كان قريبًا من المواقع القتالية من جهة الدكوانة. وما أن يحل الظلام حتى يهرع الأهالي، طوابير طويلة حاملين ما توفر من أواني وأوعية، يتزاحمون كل يحاول الحصول على كميات ولو قليلة من الماء، خاصة لأطفالهم. أصبح الحصول على الماء مشكلة كبيرة، بعد أن نضب الكثير من المواد التموينية، تلاشى الطحين، اختفت المعلبات، التي داومنا عليها سنة كاملة، وكانت مصدر الغذاء الأساسي. ثم حلّ العدس مكانها، كمصدر وحيد للغذاء، بعد أن اكتشفنا مستودعاً في أطراف المخيم، يحتوي على كميات كبيرة منه, العدس الذي استعمله الأهالي لتحضير الطعام بأشكال متنوعة، صُنعت أقراص من العدس المجروش. وماء العدس، بعد طبخه، كان يوضع في زجاجات الرضاعة، لإطعام الأطفال بدلاً من الحليب. أصبح العدس كل شيء، ومصدر الحياة في المخيم.

الأحد 5 تموز

سمعنا من الإذاعات، وجاءتنا معلومات من جهاز اللاسلكي* أنّ هناك مفاوضات لنقل الجرحى بواسطة الصليب الأحمر الدولي. ولكن القوات الانعزالية منعت البعثة من الوصول إلى المخيم. وكان نقل الجرحى يعني الكثير الكثير بالنسبة لنا. بالنسبة لتوفير الدواء، والماء، وتوفير الغذاء للمحاصرين، بالإضافة إلى إنقاذ حيواتهم.
كنت خلال جولاتي اليومية، أعبُرُ طريقًا كانت فيما مضى مصنعًا للنجارة، فقد معالمه ليصبح ساحة كبيرة. وفي تلك الساحة كانت ترقد الممرضة «آمنة حسن». ففي احدى الجولات على النقاط الطبية، أصابتها رصاصة قنّاص، ودفناها هنا في هذه الساحة. وبعد مدّة قصيرة امتلأت الساحة بالقبور، وأصبح مصنع النجارة مقبرة كبيرة. أصبح الموت حدثًا عاديًا.. يُقتل الأنسان ويُدفن في نفس المكان، بدون مراسم وطقوس.. وأي مراسم في ذلك الزمن! وكثيرًا ما كنت أتعثر بالقبور خلال مروري من هنا في الليل بظلامه الدامس.

* كان أبو رياح مسؤول جهاز اللاسلكي وصاحب الصوت المميز ينقل لنا الاخبار أول بأول يتصل بنا تلفونيا بشكل شبه يومي.

الاثنين 6 تموز

أخذت المواد الطبية في التناقص وأخذ الشاش والقطن ينضب، بسبب تزايد عدد الجرحى والمصابين. جاءنا أحد المقاتلين، ذات مرّة، وهو يحمل ثوبًا من القماش، وأخبرنا أن هناك الكثير منه. أحضروا القماش من محل الأقمشة، وبدأت الممرضات والأهالي يتساعدون في قص القماش. وهكذا وجدنا حلاً لمشكلة الضمادات والشاش. صحيح أنّ القماش من (الديولين) ولكن ... لم يكن لنا خيار آخر.
«أبو خلف»، مقاتل من فتح ومن أصل كردي. أصيب في أحداث أيلول من العام 1970 في عمان في ذراعه الأيمن، والنتيجة حالة شلل كامل، ولكن ذلك لم يمنعه أن يعمل في الاتصالات. كان بسرعة جهاز اللاسلكي، في نقل الأخبار والتعليمات من القيادة المحلية، إلى المواقع القتالية. كان معروفًا لدى الجميع بنشاطه وسرعة الحركة والتنقل، وقبل كل ذلك بشجاعته. كان يتنقل بين البرج العالي ومنطقة مركز الطوارئ، تحت وابل من القذائف، ليحضر لنا معه أكياس الضمادات. وكان بلهجته العربية المميزة يهزأ من الذين يخافون القذائف، حتى أصيب في قدمه ذات يوم.

الثلاثاء 7 تموز

في هذا اليوم، اشتد الهجوم على المخيم من ناحية دير الراعي الصالح. وتمكنت القوات الانعزالية من احتلال الدير، وهو نقطة استراتيجية مهمة في غرب المخيم. وبهذا أصبح الوضع أكثر صعوبة، فالقناصة أصبحوا يسيطرون على معظم الطرق داخل المخيم، والتحرك نهارًا محفوف بالمخاطر، وكان الأهالي والمدافعين عن المخيم، قد صدّوا أكثر من سبعة وأربعين هجوما...
كانت غزارة النيران، والقصف المتواصل تعني في كل الحالات أنّ هناك محاولة تقدّم نحو المخيم! وكنا ننتظر نتائج الهجوم، ونحن نرى التعزيزات، من موقع إلى موقع تتم أمام أعيننا. وكان منظرًا مألوفًا أن ترى مقاتلاً وقد وضع ضمادة على رأسه، أو يده في الجبس، وفي اليد الأخرى بندقية! إذ كان المقاتلون المصابون في تزايد مستمر. يمرون علينا في مركز الطوارئ، خلال تبادل الحراسات والمناوبات، ويحدثونا عن سير المعارك، وعن آخر الأخبار في المواقع. وكانت المقاتلة «أبو علي» هكذا كانوا ينادونها، وهي مقاتلة شجاعة تتمتع ببنية قوية وعينان واسعتان يخبران من يراهما أنها لا تهاب الموت. كانت في

صفوف الجبهة الشعبية –القيادة العامة، تروي لنا بعد عودتها من المواقع المتقدمة، عن أحوال المحاور الشمالية، وحاملة لنا كعادتها جالوناً من الماء، لقرب موقعها من مصدر الماء. وكانت أول ما تسألني عنه هو: سيجارة! كنت أحرص دائمًا أن أوفرها لها. وفـي كل مرة كانت تحضر، كنت لا شعوريًا أدس يدي فـي جيبي وأعطيها السيجارة التي غالبًا ما كنت احصل عليها من أحد المقاتلين.



الأربعاء 8 تموز

أخذت مشكلة الماء تصبح عبئًا كبيرًا، فالمصدر الوحيد المتبقي كان قريبًا من محاور القتال الأمامية، وغير كاف لتلبية حاجات الأهالي. وعادةً ليالي الصيف قصيرة، وساعات الليل المظلمة غير كافية، لوصول الجميع الى مصدر الماء، تحت جنح الظلام تفاديًا للقنص. انصَّب تفكيرنا على البئر الارتوازيّة الملاصقة للمستشفى، ولكن مضختها تعمل على الكهرباء، والمولد الكهربائي، بحاجة لمازوت، وقد تمكن بعض الشباب من إفراغ كميات من المازوت، من خزانات البنايات المجاورة.. ولكن! متى نشغل المولد الكهربائي؟ الليل أفضل الأوقات، فهو الأكثر أمانًا حتى نتفادى جمهرة الأهالي نهارًا، وبالتالي سقوط ضحايا نتيجة القصف والقنص.

أحضرنا كمية من البراميل الكبيرة، وضعناها قرب غرفة العمليات وأوصلناها بخرطوم، لنتمكن من ضخ أكبر كمية ممكنة في أقصر وقت ممكن، لتوفير مادة المازوت... آه! ما أغلى المازوت في تلك اللحظات! والماء، كان بالنسبة للأهالي أثمن شيء، بالرغم من طعمه المر، ولونه القريب من الأحمر لاختلاطه بالطين. في تلك اللحظات، أدركنا أنّ الماء سر الحياة. كنا نستغل فرصة تشغيل المولد الكهربائي، لاستخدام جهاز الأشعة، لتصوير بعض الحالات، ونجري بعض التحاليل المخبرية. أصبح النور والإضاءة نوعًا من الترف والرفاهية كان قسم التموين يمدنا كل يوم بتنكة من المازوت، لتشغيل المولد الكهربائي ثلاثة ساعات. عرفنا فيما بعد، أن في معمل الزعتر، بئر ارتوازية وكذلك معمل البلاط. فوصلوا مضخاتها بالمولد الكهربائي في المستشفى. وبدأنا نحصل على كمية لا بأس بها من الماء، نقوم بتجميعها في البراميل وتأتي الأهالي ليلاً للحصول على حاجتهم.

الخميس ٩ تموز
أبو الوليد*

جاءنا سلمان، بينما كان يتفقد المواقع الشرقية. جلسنا نتحدث، وكان يومًا عصيبًا والمعارك على أشدها من جهة البرج العالي. وفجأة وصل جهاز اللاسلكي النقال، وأعني به "أبو خلف"، ليخبر سلمان بأن "أبو الوليد"،* قد استشهد. كان أبو الوليد ذلك المقاتل العنيد، والشاب الشجاع، ذو اللحية الشقراء، وكان قد فقد يده اليمنى في أحداث أيلول في الأردن عام 1970. ورغم ذلك شكّل وحده، في الجهة الشرقية من المخيم، كتيبة كاملة! ينصب في موقعه " بحسب ما اخبرني من كان معه في الموقع»، مدفع 75، ورشاش غرينوف، قاذف ب 7 ، وبندقية قناصة، وكان يعمل على جميع هده الأسلحة بيده اليسرى وكثيرًا ما أوقف تقدم آلياتهم، وأعطب بعضًا منها. لقد أصيب بقذيفة مباشرة في رأسه، هشمت جمجمته، فاستشهد على الفور. جميعنا أحزننا فقدانه. طلب مني أدهم تحنيطه والاحتفاظ بجثمانه، وفاء لهذا البطل، لإخراجه من المخيم لاحقًا، لدفنه في مدافن الشهداء، أو إن تسنى لنا إرسال جثمانه إلى ذويه.

ذهبت إلى المستشفى ليلاً. بعد أن أحضروا جثته، كان الظلام دامسًا، أشعلت الممرضة فاديا الشمعة، لنبدأ عملية التحنيط، حاولت أن أتذكر ملامحه، كان علي أن أعيد ترتيب رأس أبو الوليد المهشم، ووجهه الذي تبعثرت ملامحه، حاولت إعادة ملامحه الحقيقية. وحاولت كثيرًا كأنما ارسم وجهه من جديد كما أتذكره، مُستجمعًا كل ذاكرتي من أجل ذلك.

كان الهدوء مُخيّمًا في تلك الليلة. وقد دخل الخوف والهلع، قلب فاديا. تركتني قليلاً. وجاء الممرض محمود، ليساعدني في تلك المهمة. المستشفى يلفه الظلام ما عدا ضوء الشمعة، حيث نعمل وفي الغرفة

المجاورة صراخ احدى المصابات بالغرغرينا، كانت تصرخ من شدّة الألم. صراخها كان يخدش هدوء، تلك الليلة الغير عادية. واصلت عملي إلى أن انتهيت من جمع وترتيب كل التفاصيل الممكنة، حتى بدا وجهه لمحمود ولي يشبهه إلى حد ما. قمت بتحنيطه بمحلول (الفورملين) وغطينا جثمانه بشرشف ابيض.

نزلت الدرج المظلم، إلى حيث غرفتنا القديمة، في الطابق السفلي، على ضوء شمعة خافت حملها معه أبو محمد فارس، حارس المستشفى ومسؤول الصيانة، وكنت يومها

بأشد الحاجة والشوق للاستحمام. فقد مضى وقت طويل لم يلامس جسدي الماء، كنت استعيض عن ذلك بمسح بعض جسدي بكولونيا من زجاجة منسية. في تلك الليلة كان هناك فرصة ثمينة لذلك فأشعل محمود، الحطب تحت قدر الماء، في المكان الذي كان ذات يوم صيدلية. وبعد الاستحمام ومن شدة الإرهاق غفوت قليلاً. كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا ودعنا محمود، وعدنا فاديا وانا نتلمس طريقنا بين البيوت المتهدمة، ونتعثر بالحجارة وسط الظلام. وما أن وصلنا إلى مركز الطوارئ، حتى رحت في نوم عميق من التعب وشدة الإعياء. وكان الوضع الأمني يسمح لي بذلك.

*اسمه الحقيقي فؤاد حمزة. المصدر أحد معارفه.

الجمعة 10 تموز

في المكان المجاور لمركز الطوارئ، وفي الغرفة حيث كنا ننام، كان جهاز اللاسلكي التابع للجبهة الشعبية القيادة العامة، وكان «أبو وائل» عامل الجهاز يردد بكلمات لا نفهمها، بلبل- هدهد.. بلبل.. هدهد حول.. هذه الكلمات كانت تقلقنا ليلاً. وبعدها كان يأتينا بالأخبار والمستجدات، في مواقع القتال من حين لآخر، كان ذلك ينسينا الانزعاج الذي كان يُحدثه صراخه، وهو يردد تلك الكلمات في جهاز اللاسلكي. وكثيرًا ما كنا نقرأ البرقية في تعابير وجهه قبل أن ينطق بها.

في هذا اليوم جاء أدهم. جلسنا معا الدكتور عبد العزيز وأدهم وانا، نتبادل الحديث في أمور المخيم. وتطورات الوضع. وفجأة سقطت قذيفة على بعد أمتار منا، قيل يومها، أنها قذيفة عيار 155. وأحدثت في الأرض حفرة عميقة. ولحسن حظنا لم تنفجر تلك القذيفة. ولو انفجرت لأحدثت دمارًا كبيرًا، ولمَا بقي منا أحد على قيد الحياة. قرّرنا بعدها الانتقال إلى غرفة مجاورة أكثر أمنًا. كنا ننام جميعًا في غرفة واحدة، الأطباء والممرضين والممرضات. نفترش الأرض المغطاة بحرامات من الصوف. وجاء مكاني قرب الباب لدورة المياه، وعلى الرغم من أننا لم نكن نستعمله، إلا أن الرائحة الكريهة لم تمكنني من النوم في اليوم الأول. فقمنا برش المكان بالمطهرات، وتنظيفه جيدًا. وصرت بعدها أنام غير آبه بالرائحة، من شدّة الإرهاق.

السبت 11 تموز

5 – 7 ... 5 – 7.. كيف تسمعني؟ أجب.. كان سلمان يجلس معنا وأمامه جهاز اللاسلكي، ومنه تنطلق النداءات إلى المواقع العسكرية... و 5 – 7.. هذا رقم النداء لمخيم تل الزعتر، وفي آخر نداءاته طلب غطاءً ناريًا للمخيم، من مدفعية القوات المشتركة المتمركزة في الجبل. وكانت هذه المدفعية تقيم ستارًا ناريًا حول المخيم، في محاولات لمنع تقدّم القوات الانعزالية نحو المخيم واقتحامه.. وكانت غالبًا قذائفها تصيب أهدافها، مِمّا يُدخل الأمن والطمأنينة في قلوب أهالي المخيم.

وكان سلمان يُحدد لتلك المدفعية المناطق التي يجب قصفها. يريد لها أن تقصف بكل التفاصيل الفنية اللازمة.

حدث في هذا اليوم قصف مضاد عنيف على المخيم. حاولت «سهام» وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، أن تُسعف أحد المقاتلين، وأن تساعد في نقله الى مركز الطوارئ، عندما سقطت قذيفة، أصابتها شظاياها في ساقها، فنقلت إلينا بحالة حرجة نتيجة صدمة بسبب النزيف الحاد، أعطيناها الدم اللازم ولكن حالتها كانت خطرة. شرايين ساقها كانت مقطوعة وكان لا بد من البتر، في ظل ظروفنا وإمكانيتنا وحفاظاً على حياتها، رفضت. بحثنا الأمر مع المسؤول العسكري للجبهة الدمقراطية، بشأنها، كانت سهام، تنتمي للجبهة الدمقراطية ولكن، كان علينا أن نتمهل قليلاً. كان الحديث يومها يدور حول إمكانية قيام الصليب الأحمر الدولي، بنقل الجرحى وفي كل يوم، كنا نظن أنهم سيأتون في اليوم التالي. كانت لا تريد أن تصدق أن رجلها بحاجة إلى بتر في ظروف عملنا تلك، والا أثر ذلك على حياتها. ولم نستطع القيام بذلك لعدم موافقة الأهل والمسؤول. كانوا يظنون بإمكانية المحافظة على رجلها.. وكان أن فقدنا سهام بنت الثامنة عشرة ربيعًا..

الأحد 12 تموز

الماء.. الماء، اخذ يتناقص.. وكان كوب الماء الواحد إذا توفر، يدور على أفواه عدد من الحاضرين، كل يتناول رشفة يبلّ فمه، وبوده لو يبتلع كل ما فيه.
كنا بين الحين والآخر، وبحسب ما يتوفر لنا من المازوت، نشغل المولد الكهربائي لضخ كميات من مياه البئر الارتوازية. مياه البئر طعمها غريب، ولونها أغرب، ولكن بالنسبة لنا كانت الماء الذي نحتاج.
كان الممرض «نظيم» وهو ممرّض نشيط ، وذو خبرة جيدة في مجال التمريض، مما جعلنا نوكل إليه أن يشرف على غيار الجروح. كان يقوم بجولته اليومية، على مختلف النقاط الطبية للغيار على الجروح، وتفقد الجرحى والمصابين، وقد ابتكر طريقة عملية في حمل المواد اللازمة للغيار، كان يحمل في عنقه ما يشبه "كشة" البائعين المتجولين يضع فيها كل ما يلزمه في عمله من مطهرات وضمادات.
لقد أبدع طاقم التمريض في عمله في كل المجالات، وقد دربناهم نظريًا وعمليًا، على أسلوب التعاطي مع مختلف الإصابات في حالات الطوارئ. وكانت هناك توجيهات طبية مكتوبة ومعلقة على الحائط في غرفة الطوارئ، تشرح ماذا يجب عمله حسب نوعية الإصابة. ولقد قاموا بواجبهم كفريق عمل طبي على أحسن وجه، على الرغم من كثافة عدد الجرحى والمصابين، والنقص في الإمكانيات الطبية، مما جعلنا نشعر أننا لسنا طبيبين فقط، وإنما نعمل بطاقة عشرين طبيبًا، بفضل الجهد الاستثنائي والعظيم الذي يقوم به الممرضون والممرضات وباقي المتطوعين. فقد تدرب المتطوع «طه» على أخذ صور الأشعة وأجاد في ذلك. أما الممرض «عارف»، فقد ساعدناه على إتقان عملية التخدير العمومي بما هو متوفر وأقام بعملة بطريقة ملفتة، ولم يكن متوفرًا لدينا إلا "الايثر" و"الكاتلار"، وقد ساعدنا ذلك في إجراء عمليات كبيرة ومعقدة. وكان هناك مهارات لدى الطاقم الطبي بالعناية بإصابات الرأس وإصابات الصدر واستعمال الأوكسجين وأدوات الشفط من فتحة القصبة الهوائية والأنابيب الصدرية. وإعطاء وحدات الدم.
قررت في هذا اليوم القيام بتفقد الجرحى والمصابين في بعض النقاط الطبية، وبعدها الذهاب إلى المستشفى نهارًا، لأتفقد الجرحى هناك.. سلكت مع ممدوح، طريقًا لا أعرفه بين البيوت المهدمة.. وفجأة كنا نمشي وسط منطقة مكشوفة، فآنهال علينا رصاص القنص من عدّة اتجاهات، واختبأنا وراء بقايا جدار.. فاستقرت احدى الرصاصات فوق رأسي بما لا يزيد عن عشر سنتيميترات، وشعرت أننا وقعنا في مصيدة، إلى أن أهتدى

ممدوح، إلى طريق آمنة، فركضنا متابعين طريقنا إلى المستشفى.
كانت مجموعة من الناس قد أخذت تستخدم جزءا من المستشفى كملجأ.
وسرعان ما بدأ يغص، بالأهالي الذين يستخدمونه ملجأ. كان الجو في المستشفى خانقًا. وخاصة في الطابق السفلي، وكنا نشق طريقنا إلى غرف الأقسام بصعوبة، من جرّاء تكدّس الأهالي في الممرات وعلى الأدراج، وصلنا إلى غرفتنا العتيدة، ولأنها الأكثر أمانًا فقد كنا قد نقلنا الأدوية إليها، بعد أن قصف مستودع الأدوية.
حملنا معنا بعض الأدوية، وسلكنا طريقًا آخر أثناء عودتنا. كان منظر التلال التي تحيط بالمخيم رهيبًا.. نُصبت عليها دباباتهم ومدافعهم.. وكانت مساحة المخيم تتقلص كل يوم، فكلما تهدمت ابنية، تراجع الأهالي إلى البنايات المجاورة، وهكذا تجمّع الأهالي في مساحة لا يعدو طولها كيلو متر وعرض خمسمائة متر.
كانت منطقة البرج العالي أكثر الجبهات اشتعالاً. البرج العالي، حيث كانوا يحاولون التقدم إلى منطقة رأس الدكوانة. المنطقة مُحصّنة تمامًا، وأكياس الرمل والمتاريس تسدّ مداخل الأبنية، وعلى العمارات المجاورة، ينتشر القناصة.. يصطادون كل من يقع تحت أنظارهم، ومرمى رصاصهم. في هذه الليلة، هاجم المقاتلون هذه الأبنية، ووضعوا عبوات ناسفة، ودمروا الطابق الأرضي والدرج حتى لا يعود بالإمكان الصعود اليها والقنص منها.

الثلاثاء 13 تموز

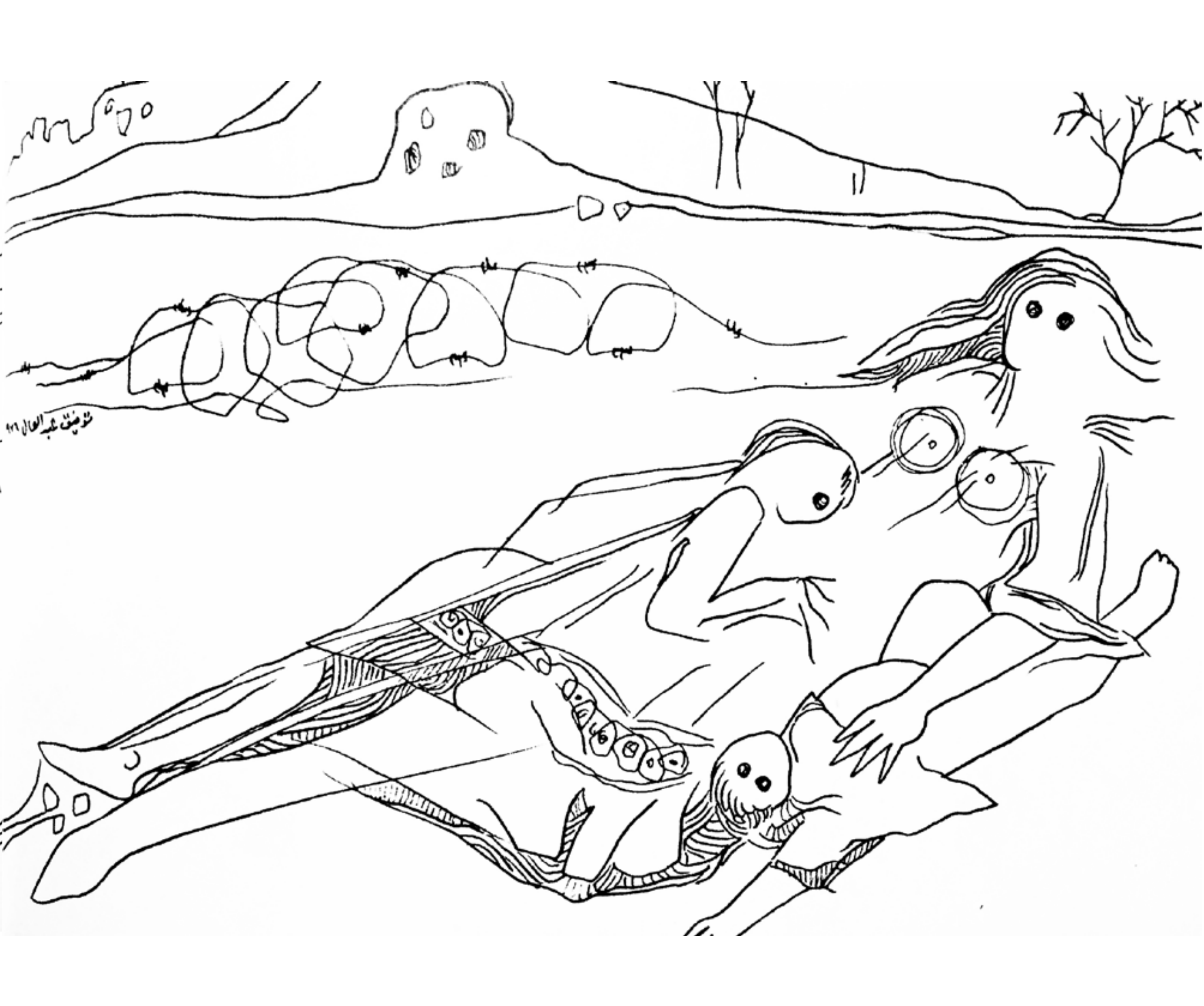
لم تعد الحياة داخل المخيم عادية، وتبدّل الكثير من المفاهيم الاجتماعية واليومية. سادت الروح الرفاقية والجماعية عند الأهالي، ولم يعد للنقود والماديات أي قيمة، فكانوا يقتسمون فيما بينهم ما يتوفر من طحين ومعلبات.
بدأت حياتنا تبدو بدائية... كل شيء كان يُطبخ ويُحضر، على نار الحطب.. وعندما نفذ الحطب، بدأ الأهالي يستعملون أبواب ونوافذ البيوت المهدمة.. ينتهزون فرصة حلول الظلام، لجمعها وإحضارها، وذلك تفاديًا للقنص. أما الماء فأصبح مشكلة مستعصية، عانينا منها الكثير، وخاصة في مركز الطوارئ، عندما فقدت المطهرات والأدوية، ولم يعد بإمكاننا إلا استعمال الماء والملح، لتطهير الجروح.. كنا نطلب من الجرحى وذويهم الذين يحضرون للغيار على جروحهم، أن يجلبوا معهم زجاجة ماء، مع بعض الملح إذا توفر ذلك.
العلاقات الاجتماعية والإنسانية، تغيّرت كثيرًا بتأثير الحصار... وخاصة التقاليد الموروثة في مجتمعنا الشرقي. كان الأهالي يحشرون أنفسهم رجالاً ونساءً وأطفالا في الملاجئ

الضيقة، كنا كأطباء وممرضين وممرضات نفترش الأرض سويًا وفي نفس الفراش في تلك المساحات الضيقة. ولم يكن ذلك ليثير أحدًا. وكثيراً ما كانوا يأتون لإيقاظنا، لأن جريحًا قد وصل.. وقد قرّبنا الحصار والإحساس باقتراب الموت إلى بعضنا البعض.
كانت الشمعة تُرسل نورها المتراقص، الخافت والوحيد في تلك الغرفة المظلمة، وأنا أنظر إلى جدران تلك الغرفة المُتّشحة بالسواد، ورائحة الشمع التي اعتدنا عليها تملأ فضاء الغرفة.
في تلك الليلة دخل علينا أحد المقاتلين "علي"، وهو مقاتل في السابعة عشرة من عمره، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً... كان منفعلاً. لقد أصيب رفيقه وهو ينزف، وبحاجة إلى نقل دم.. ما العمل؟ قلت له: " إن رفيقك بحاجة لدم". ولم نكن آنذاك قادرين على تخزين وحفظ وحدات وأكياس الدم، نظرًا لعدم وجود كهرباء، وبالتالي عدم استعمال الثلاجة. خرج «علي» وعاد بعد فترة قصيرة، ومعه مجموعة من النساء كن في طريقهن للبحث عن الماء. كان منفعلاً ولم يكن يعي ما يفعل.. أفهمناه أن هذا مستحيل! فالنسوة كن مرهقات، ونحيلات ومن بينهن المرضعات. بعد قليل حضر بعض الشباب والرجال، وتبرعوا بالدم. وهدأت ثورة "علي"، الذي كان خائفًا على رفيقه.

الأربعاء 14 تموز

بدأ الهجوم الرابع والخمسون على المخيم، بقصف شديد، وقد اختاروا هذه المرّة محور دير الراعي الصالح وغاليري جورج متى.. وهي بناية عالية ومرتفعة تقع على مقربة من مدخل المخيم من جهة الغرب. كان الهجوم كبيرًا، تسانده الدبابات والمدفعية، وماذا تفعل الأسلحة الفردية بأيدي المدافعين عن المخيم؟ اضطر المقاتلون إلى الانسحاب إلى مداخل المخيم.. فأثر هذا كثيرًا على الوضع النفسي للأهالي بشكل واضح. ذهبت إلى غرفة اللاسلكي استوضح الموقف، فأكدوا لي صحة الأخبار، وأن المقاتلين المدافعين عن المخيم يستعدون لصد الهجوم ليلاً، واستعادة الموقع التي تمركزت فيه القوات الانعزالية. ثلاثة كنت أشاهدهم لأول مرة... عرفت أن مجموعة من المقاتلين قد تسللت إلى داخل المخيم عن طريق الجبل.. وقد وصلت مع خيوط الفجر.. وقد وضعت خطة لهجوم مضاد لاستعادة غاليري جورج متى.. إذ كان في هذه البناية جورج متى، ملجأ كبيرًا، وفي داخله مجموعات من النساء والأطفال من أهالي المخيم.. قبل بدء الهجوم، حاولت القيادة العسكرية، إخلاء الملجأ لخطورة الوضع، وطلبت من الأهالي ذلك، ولكن لم يتمكن الجميع

من الخروج منه، لأن التحرك نهارًا كان في غاية الخطورة.. وهكذا تمكنت القوات الانعزالية من التقدم نحو الملجأ.. بعد أن استشهد كل المقاتلين والمدافعين، على باب الملجأ، فتم اقتحامه.. وفتكوا بعدد كبير من النساء والأطفال.. بينهم طفل رضيع في الشهر الثاني من عمره، ضربوه بفأس على رأسه. حاول المقاتلون استرجاع الموقع، ولكن محاولتهم لم تنجح، بسبب كثافة المهاجمين الذين احتلوا الموقع معززين بآليات كثيرة وأسلحة ثقيلة.. طلب القائد العسكري قصف موقع جورج متى، من مواقع القوات المشتركة في منطقة الجبل.. وذلك حتى لا يتخذوها موقعًا لهم، ويتمركز قناصتهم فيها، ويهددون أهالي المخيم برصاص القنص. كانت البناية لا تبعد أكثر من خمسمائة متر عن مركز الطوارئ وحوالي سبعين مترًا عن مدخل المخيم. وفعلاً بدأ قصف البناية بالصواريخ. فأشاع ذلك نوعًا من الطمأنينة في نفوسنا، لأن تمركزهم في البناية كان سيشل حركتنا، نهارًا دخال المخيم... ومع غروب الشمس، هدأت حِدّة المعارك والاشتباكات، ليعود القصف، وإطلاق الرصاص المتقطع. هذا الصمت يذكرنا بأننا داخل حصار مُحكم.



الخميس 15 تموز

ركزت القوات الانعزالية دعايتها الإعلامية، عبر إذاعاتهم وصحفهم، أن المخيم خال من المدنيين، وأنّه عبارة عن « مجموعة من القلاع العسكرية والتحصينات وأنفاق تحت الأرض»، وذلك ليبرروا فشلهم في اقتحام المخيم، على الرغم من القوات الهائلة التي حشدوها، والآليات الكثيرة. ولو قدر لهم ذلك لقضوا على كل من فيه من نساء وأطفال وشيوخ. كان لنبأ تسلل مقاتلين عن طريق الجبل، إلى داخل المخيم وقعا كبيرًا، على الأهالي لقد دخل حسب ما قيل 12 مقاتل، ولكن إحساس الأهالي بأنه دخل ألف مقاتل، لأنهم في لحظة من اللحظات، ظنوا أن العالم نسيهم.. ولا يسمع بهم، وأنهم يموتون موتًا بطيئًا.

لقد أحضر المقاتلون معهم، بعض الأدوية واللوازم الطبية، من بين التي كنا طلبناها. فرحنا كثيرًا لذلك. ولكن القصف لم يهدأ للحظة، وعدد القتلى من الأهالي والمقاتلين بازدياد، ومع ذلك كنت ألاحظ مجموعات المقاتلين تنتقل وتتوزع، على المحاور بحذر شديد. كل يوم كان يمر.. كنا نفقد فيه رفاقًا وأحبة، كانوا بالأمس يجلسون معنا، وهم في طريق عودتهم من محاور القتال ليشربوا الشاي بدون سكر، ويحدثونا عن آخر الأخبار. وصار خبر الموت أمرًا عاديًا! كان المقاتل «العسكراني»* ذلك الشاب طويل القامة، قوي البنية، يعتمر قبعة كقبعات رعاة البقر الأمريكيين، والجزء الأعلى من جسده عاري، وفي يده بندقية أمريكية نوع ام 16, كان يزورنا في الهلال بشكل شبه دائم، وأحيانًا كثيرة يجلب الجرحى والمصابين من مواقع القتال, ويطلعنا على أخر التطورات. وذات يوم جاؤوا بالعسكراني مصاباً بشظية صغيرة في الجهة اليسرى من صدره في منطقة القلب، لم نستطع انقاده لأنه كان قد فارق الحياة عند وصوله.

لقد كثفوا القصف العنيف على المخيم، من كل مواقعهم المحيطة به، ومن كل الجهات، وبكافة أنواع الأسلحة، والتي كانت تزيد عن تسعة عشر مربض مدفعية وموقع عسكري. كان البناء الذي نشغله، يهتز يوميًا عشرات المرّات، نتيجة القصف الشديد. وكان ما تبقى من الأبنية المجاورة، مثقوبًا بثقوب كثيرة كقطع الجبنة السويسرية، وذلك من جرّاء القصف المباشر. وكنا دائمًا نفكر ماذا لو دمرت الأبنية من الجهة الجنوبية التي تحمينا؟ بالتأكيد سنصبح عرضة للقصف المباشر.

*اسمه الحقيقي حسن فياض الخطيب

الجمعة 16 تموز

كنت أعاين جروح المصابين وكانت تساعدني الممرضتان فريال وفاديا، وفجأة سمعنا صوت قذيفة واكفهر الجو حولنا، وامتلأ غبارًا، حتى إنني لم أستطع رؤية من حولي. وصرخت: فاديا! وخرجت تركض وتقول: "إخواتي.. إخواتي"، كان إخوتها الصغار، يشغلون ركنًا في الطابق الأول من البناية، ولكن ما وصلت إلى الدرج، وهي بحالة من الذعر الشديد والهلع، حتى رأتهم نازلين يصرخون ويبكون مهرولين، والرعب قد بدا على وجوههم..
وبعد قليل، جاء نزار، مساعد المختبر بالخبر اليقين: "لقد سقط صاروخ ودمر الطابق الخامس من البناية"، التي نعمل فيها في الطابق الأرضي، وأحضر معه أجزاء من الصاروخ، بعدها أصبح جمع القذائف والشظايا التي تسقط حولنا هواية مفروضة علينا!

الجمعة 17 تموز

كنا قد تلقينا عِدّة برقيات، بواسطة اللاسلكي من القيادة في بيروت الغربية، تفيد بأن هناك اتفاقًا لنقل الجرحى والمصابين، بواسطة الصليب الأحمر الدولي. ولكن لم يكتب له النجاح، بسبب رفض القوات الانعزالية له، رغم كل النداءات. وقد أرسلنا في هذا اليوم عبر جهاز اللاسلكي برقية باسم أسرة المستشفى* « برقية نداء إلى الرأي العام العالمي، والجمعيات الدولية، والصليب الأحمر الدولي للقيام بواجبها الإنساني. إذ كان لدينا مئات الجرحى والمصابين، في طريقهم إلى موت مؤكد إذا لم يتم إخلاءهم من المخيم، أو يتمكنوا من الوصول الينا ومعهم الإمكانيات الطبية اللازمة.

ألأحد 18 تموز

تعرّض المخيم منذ صباح هذا اليوم للهجوم رقم ستين (60) وكان الأطفال الأكثر تضررًا من قلة الماء في المخيم، نقص الماء.. وبدأت تظهر حالات الجفاف، بسبب نقصان المياه والحليب. وهذا ما كان يؤثر في معنوياتنا كثيرًا كأطباء وممرضين. وكم هو صعب على الطبيب حين يعرف ما هو المطلوب، وأن ذلك غير متوفر، وخاصة عندما يصلنا عشرات الأطفال، وهم يعانون سكرات الموت الأخيرة! وأن المطلوب شيء واحد، الماء.. الماء.. ومن المستحيل الحصول عليه!

كنا في قرارة أنفسنا نعرف أنّ الأمل الوحيد لنا، هو وصول الصليب الأحمر الدولي، لإنقاذ الأطفال والجرحى من الموت المحتم. كنا نعلم أنّ كل طلقة يطلقها المدافعون عن المخيم لن يأتي بدلاً منها.. وأن الدواء في طريقه إلى النفاد كلياً! فالمعركة تَحدّدت معالمها ومجرياتها بشكل واضح.. وهي «الصمود حتى الموت»! كان تقديرنا أن المخيم بإمكاناته المتواضعة، وتفوق القوات الانعزالية، بالعدد والعدة، لم يكن باستطاعته الصمود أكثر من خمسة عشر يوما، وها قد مضى على صموده ثلاثون يومًا، وصد المدافعون عن المخيم، أكثر من ستين هجومًا..

الاثنين 19 تموز

استيقظت مبكرًا على صياح وعويل. كانت الساعة حوالي الرابعة صباحًا، وقد احضر بعض المقاتلين مجموعة من النساء، إصاباتهن جد خطيرة. لقد سقطت عليهن قذيفة، وهن يناضلن من أجل الحصول على بعض الماء، من المصدر الوحيد المتبقي، رغم خطورة الوصول إليه! والانعزاليون كانوا يراقبونهن وينتظرون تجمعهن، حول مصدر المياه، ليلقوا عليهن قنابل الهاون لقد سقط منهن في هذه الليلة، اثنتي عشر امرأة، فأطلقنا عليهن، «شهيدات الماء».

وهكذا أصبح الإنسان في تل الزعتر، محتارًا كيف يموت، وأيّ طريقة يختار.. هل هو الموت جوعًا؟ عطشًا؟ بقذيفة؟ أم برصاصة قنّاص؟

صار الحصول على الماء أمرًا صعبًا، ومحفوفًا بالمخاطر، وكان مجرد خروج النساء ليلاً وسماع «طقطقة» المواعين، وهن يذهبن جماعات إلى مصدر المياه، يضعنا في حالة استعداد كامل، فمن الممكن والمحتمل جدًا، أن نستقبل إصابات وجرحى بعد قليل.. فتجمعهن يعني أنهن، هدفًا مباشرًا، لرصاص وقذائف الفاشيين. لذلك جرى التفكير بنقل مصدر الماء إلى مكان أكثر أمانًا، وبعيدًا عن مرمى نيرانهم، لكن ذلك كان مستحيلاً، بسبب وجوده في مكان منخفض وضخه إلى مكان مرتفع صعب للغاية، مع عدم توفر الإمكانيات اللازمة لذلك، كما أن تطهير الموقع من القوات الفاشية كان مستحيلاً.

حضرت إلينا بعد قليل امرأة عائدة من مصدر الماء، وهي تحمل على رأسها سطلاً مليئًا بالماء، وقد أصيبت بيدها، وصلت إلينا وهي تنزف من يدها القابضة على السطل بقوة. جلست واستراحت ولكنها كانت تقبض على السطل بكلتا يديها، حاولنا وبعد جهد تخليص السطل من يدها حتى نقوم بإسعافها، كان التعلق بالحياة، لها ولأولادها، متمثلاً بتعلق يدها في ذلك السطل! جلست تلهث وهي مطمئنة، لقد أحضرت ماء لأطفالها الصغار، لن يموتوا عطشًا على الأقل.. نظفت لها الجرح وربطت ضمادة، لم يكن هناك أي كسور في العظم، وكانت بيدها الأخرى تمسك بالسطل. كانت على عجل ولا تريد الانتظار أكثر! لقد أحضرت لأولادها هدية ثمينة.. ماء! بضع نقاط من دم يدها قد تناثرت في السطل، فأعطت الماء لونًا ورديًا، ومع هذا فهو الماء هديتها الكبيرة لأطفالها..

لقد كان يومًا قاسيًا، تعرض فيه المخيم لأربع محاولات هجوم من جميع الجهات، ولكن صلابة المقاتلين المدافعين عن المخيم، أفشلت المحاولات الأربعة. ونام المخيم تلك الليلة يئن من أوجاعه ومن معاناته، ومن الإرهاق، والعطش والجروح النازفة.

الثلاثاء 20 تموز

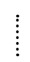
كانت ساعات الصباح الأولى، في أغلب الأحيان تعني لنا الجرحى. جرحى الماء.. الأهالي ينتظرون قدوم الليل وحلول الظلام، فهو الفرصة الوحيدة للحصول على الماء.. ومن يدركهم نور الصباح، يقعون فريسة القنص، لا يريدون العودة، خالين الوفاض من الماء. والإصابة، تعني النزيف، وكيف تحتمل هذه الأجسام الهزيلة، والجائعة والعطشى، والمرهقة، نزيف الدم؟! أيّ نزيف، كان يصيب معظم تلك الحالات، بحالة صدمة عصبية! هكذا كانت أحوال معظم الجرحى والمصابين.. فالحصول على دم أصبح شبه مستحيل. ممن نأخذ؟ لقد تبرع معظم الأهالي بدمائهم للجرحى والمصابين، كذلك تبرع الممرضون جميعًا مرتين، وتبرعنا الدكتور عبد العزيز وانا أيضًا كل مرتين. صرنا نأخذ نصف الكمية

من المتبرعين، أي ما يعادل، ربع ليتر، من الدم. وساعدتنا هذه الطريقة..

كنت أطلب من نزار، أن يُحصي عدد الأكياس المتبقية لسحب الدم. وكان هاجس نفاد الأكياس يطاردنا، فهي الطريقة الوحيدة، لإنقاذ الجرحى المصابين بنزيف حاد..

بعد أن تراجع مستوى عملنا الطبي والجراحي بسبب نقص الأدوية، واللوازم الطبية، لم يعد باستطاعتنا إجراء العمليات الجراحية الباطنية، لفقدان المصل، ومواد التخدير والأدوية التي لم يبق منها إلا البنسلين. وكنا نعطي السوائل للجرحى بواسطة الفم، وبجرعات صغيرة، بشكل مستمر، بما توفر لدينا من ماء. والأمل كان مُعلقًا على قدوم الصليب الأحمر الدولي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كنا نجري الجراحات مثل إصابات الصدر، بوضع أنبوب في الصدر، نتيجة النزيف الصدري، ونعالج الكسور وإصابات الرأس، أما الجراحة الباطنية فلم يعد باستطاعتنا إلا الانتظار.. وطال انتظارنا.. وفقدنا الكثير من الجرحى.



الخميس 22 تموز

بدا هذا اليوم هادئا منذ الصباح، على غير العادة. مرت ساعة..
وساعتان، كنا قد اعتدنا على القصف المبكر. وقاربت الساعة العاشرة، ولم نسمع إلا أزيز رصاص القنص المتقطع، كنا على موعد مع الصليب الأحمر الدولي، فقد حاول الصليب الأحمر الدولي التحرك إلى المخيم بالأمس، ولكنه تعرض لرصاص القوات اللبنانية، فاضطر إلى العودة. أخذنا في هذا اليوم نحصي، الإصابات ونصنفها، وذلك حتى يتسنى لنا إرسال الإصابات الأشد خطراً، في الدفعة الأولى. انتظرنا حتى الثانية عشرة ظهراً، ولم يصل وفقدنا الأمل من وصوله هذا اليوم. بعدها بدأ القصف مجدداً على المخيم..
كان الجو حاراً في تلك الليلة. وطالت لحيتي والعرق يتصبب، لقد مضى وقت طويل قبل أن استحم.. وكنت من حين لأخر امسح جسدي بالكولونيا من بقايا زجاجة، علها تجدد فيّ النشاط قليلا..
وتمضي ساعات تلك الليلة، ونحن نفكر بالغد.. وماذا يخبئ لنا؟
وصلنا رسول من قبل القائد العسكري سلمان، يخبرنا أن نجهز أنفسنا لان الصليب الأحمر الدولي سيحضر غدا صباحا. فبدأنا نجهز قوائم الجرحى من جديد، لأن اللائحة كانت تتغير يومياً، إصابات جديدة تحضر، ومصابون قدامى يموتون، وبعض الإصابات التي كانت متوسطة، تزداد سوءا بسبب نقص الدواء والإمكانيات الطبية.
قمنا بجولة الأخ أدهم وانا ، وكانت ترافقنا الممرضة فاديا، وقمنا بتسجيل لائحة بأسماء الجرحى. ونمنا تلك الليلة على أمل أن الغد، سيكون يوما آخر. وسيحضر الصليب الأحمر الدولي هذه المرة..

الجمعة 23 تموز

في الصباح وردت إلينا، رسالة لاسلكية تفيد أن بعثة الصليب الأحمر الدولي قادمة فعلاً! وهيّأنا أنفسنا لذلك. كان الاتفاق على أن تدخل البعثة إلى المخيم من جهة غاليري جورج متى. وأنه يتعين على واحد منا أن ينتظر، عند مدخل المخيم، وعليه أن يلبس مريولاً ابيض، ويعتمر خوذة بيضاء، ويحمل علمًا أبيض، عليه شارة الهلال الأحمر، حتى يكون في مأمن من القنص، ويتعرف عليه أعضاء بعثة الصليب الأحمر الدولي .. فيصطحبهم إلى داخل المخيم.. وقع الإختيارعلى الشاب « محمود فريجه»، وهو أحد المقاتلين.

قمت برسم الهلال بالدواء الأحمر على قطعة بيضاء من القماش، أخذها محمود متوجهًا إلى مدخل المخيم، الذي تغيّرت معالمه كليًا.. وذهبنا عبد العزيز وأنا إلى غرفة اللاسلكي حتى نعرف تحركات الصليب الأحمر الدولي، عبر الاتصال بغرفة العمليات المركزية في بيروت الغربية، ومن خلالها، نعرف تحركات الصليب الأحمر الدولي. تأكدنا أنّ البعثة عبرت بوابة المتحف، في الساعة العاشرة صباحًا، وانتظرنا وطال انتظارنا.. عرفنا أنّ هناك هدنة لمدة ساعتين حتى تتمكن بعثة الصليب الأحمر من الوصول إلى داخل المخيم! وفعلاً توقف القصف.. ولكنَّ القنص لم يتوقف، حوالي الساعة الثانية ظهرًا، أخبرتنا أجهزة المراقبة، أنّ هناك سيارة زرقاء تحمل علما للجنة الدولية للصليب الأحمر تتوجه إلى مدخل المخيم..

توجهنا الدكتور عبد العزيز وأنا وسلمان القائد العسكري للمخيم، نحو إدارة المستشفى حيث قرّ الرأي أن نجتمع بالبعثة هناك. وكان رصاص القنص ينهال علينا من جهة تلة المير، ودير الراعي الصالح.. وانتقلنا شبه زاحفين حينًا، ونمشي القرفصاء، حينًا أخر، تفاديًا للقنص، الى أن بلغنا المستشفى.. دخلنا غرفة الإدارة، التي كانت ذات يوم، تفيض حيوية، وإذا هي مليئة بالأتربة والغبار.. وبعض بقايا قذائف الهاون، من مختلف الأحجام والعيارات. انتظرنا بعض الوقت، إلى أن رأينا ثلاثة أشخاص كل واحد منهم، يحمل علما كبيرًا للجنة الدولية للصليب الأحمر، متوجهين إلى مدخل المخيم بصحبة الشاب محمود.. كان المنظر شديد الرهبة.. ويصعب وصفه، الطريق مليئة ببقايا جثث متناثرة.. هنا يد.. وهناك ساق.. لقد سقطت قذيفة في الحفرة التي نحتفظ فيها بالجثث الموضوعة بتوابيت خشبية منذ بدء الحصار.. وصلوا الينا بعد أن مروا في هذا الطريق المرعب. بعد أن عرّفونا بأنفسهم جلسنا.. كانوا ثلاثة: رئيس البعثة في لبنان "جان هوفليجر"، وطبيب "د.

باسكال" ومساعده.. قدموا لنا السجائر، التي لم نذق طعمها منذ مدة. قدمنا لهم، بشكل رمزي، كوبّا من الماء، وهو أغلى ما نملك فـي تلك اللحظات.

تحدثت معهم بالإنجليزية وأعطيناهم صورة واضحة ومفصلة عن الأوضاع المتردية والبالغة الصعوبة داخل المخيم، وخاصةً أحوال الجرحى والمصابين، وفقدان الماء والدواء، وعن وضع الأطفال والأهالي... وفجأة وصلت إشارة لاسلكية على جهاز رئيس البعثة "هوفليجر"، وظهرت على وجهه تعابير غير مطمئنة، وقف فجأة معتذرًا وقال : علينا أن نغادر المخيم فورًا، لأنّ الطرف الآخر، سوف يقصف المخيم. وقال لنا: إن زيارتنا للمخيم كانت مهمة جدًا، على الرغم من قصرها. لقد حصلنا على صورة الأوضاع داخل المخيم، وعرفنا كيف نصل إليكم، ومع من يجب أن يكون الاتصال وهذا مهم جدا! غادرتنا البعثة من حيث أتت.. وأخبرنا الأهالي أن الهدنة انتهت.. وأن القصف سيبدأ، حال مغادرة البعثة، وما إن غادرت البعثة، حتى انهالت القذائف على المخيم، من جميع الاتجاهات.. كان اللقاء مع البعثة، أول اتصال لنا مع بشر من العالم الخارجي، منذ أكثر من شهر! كنا نتوقع، أن يقوم الصليب الأحمر بنقل بعض الحالات الخطيرة، من الجرحى فـي ذلك اليوم. ولكنهم أخبرونا أن مهمتهم كانت استكشافية، للاطلاع على الوضع فقط.

كنا عرفنا من البعثة أنه لا سبيل لنقل الجرحى والمصابين إلى مستشفيات بيروت الغربية. وأنه كان محظورًا عليهم إحضار وإدخال أية مواد تموينية، أو مواد طبية وأدويه، أو أية احتياجات للمخيم. هذه كانت شروط القوات الانعزالية، للسماح للبعثة بدخول المخيم حتى أنهم أخبرونا بأن زجاجات المياه والسجائر، التي كانت بحوزتهم قد صودرت قبل دخولهم المخيم. كان قادة القوات الانعزالية غير راضين، بل مستائين من عمل البعثة الدولية، وخاصة من رئيس البعثة هوفليجر. حتى أن أحد القادة البارزين فـي صفوف الانعزاليين، طلب من اللجنة الدولية فـي جنيف، بنقل رئيس البعثة من لبنان إلى مكان آخر. معتبرًا إياه ينتمي لليسار الدولي ويتعاطف مع الفلسطينيين حسب ادعائه.

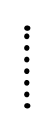
بعد هذا الاتصال السريع والقصير، مع العالم الخارجي عدنا إلى عالمنا، عالم الحصار.. والعطش.. والقذائف.

السبت 24 تموز

بدت الأخبار القادمة من منطقة النبعة، غير مطمئنة ولا مشجعة، ظلت النبعة تقاوم مدة طويلة، صامدة في وجه الهجوم والاقتحام، ولكن الطابور الخامس الداخلي، لعب دورًا في إخلائها من سكانها لتسقط بسهولة، في قبضة القوات الانعزالية.
هدأ القصف قليلاً على المخيم.. فالهجوم كان مُركزًا في تلك الليلة لاحتلال النبعة. توجهت ليلاً أنا والدكتورعبد العزيز إلى غرفة اللاسلكي. كنا نسمع قصفًا بعيدًا، عرفنا أنّ سببه، محاولة بعض المقاتلين الفلسطينيين دخول المخيم، وأنّ القوات المشتركة تغطي دخولهم، بقصف مواقع القوات الانعزالية من الجبل. وقفنا على درج غرفة اللاسلكي، نتحدث مع الدكتور فتحي عرفات، رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني على جهاز اللاسلكي، تحدث معه د. عبد العزيز، ثم تحدّثت معه، وأخبرناه عن أوضاع المخيم وآفاق التحرك المطلوبة.
كان الجو رهيبًا في تلك الليلة. سقطت النبعة ولم يبق من مثلث الصمود، سوى ما تبقى من مخيم تل الزعتر. وردتنا أخبارعن المذابح والانتهاكات التي مارستها القوات الانعزالية في منطقة النبعة، ولم يزدنا ذلك إلا تصميمًا على الصمود، والدفاع عن المخيم. كانت ليلة قمرية، عُدنا على وقع أجراس الكنائس تقرع فرحًا وابتهاجًا بسقوط النبعة، وإيذانًا وإنذارًا ببدء الهجوم الكبير، على مخيم تل الزعتر..
هدأ القصف، وكان في ذلك الهدوء، رهبة هدوء ما قبل العاصفة.

الأحد 25 تموز
الملجأ

بدأ القصف الشديد على المخيم مبكرًا مع الخيوط الأولى لضوء النهار. جاءنا أبو السعيد، حوالي الواحدة ظهرًا، ليُخبرنا أن بناية في رأس الدكوانة قد انهارت فوق الملجأ، وأنّ كافة المنافذ قد سدت على الموجودين داخله، وأنّ خطر موتهم اختناقًا وارد. حدث ذلك في وضح النهار. المكان مكشوف من جميع النواحي. ومُعَرّض لنيران القنص والقصف. ووسط ظروف صعبة وخطرة، استطاع الشباب، أن يُحدِثُوا فتحة في أحد الجدران، فأنقذوا عددًا ممن كانوا داخل الملجأ ومن بينهم سبعة أطفال، استطعنا إنقاذهم، رغم الهزال الشديد. أمّا الباقون، فلم نتمكن من إنقاذهم. وقد مات تحت الأنقاض العشرات ومن ضمنهم عائلات بكاملها. إذ كانت البناية قائمة على أعمدة من الإسمنت، ركزت القوات الانعزالية، قصفها على تلك الأعمدة، حتى فقدت البناية توازنها، وسرعان ما انهارت، وسقطت بكاملها فوق الملجأ.. فكانت فعلاً مقبرة جماعية.



الاثنين 26 تموز

في الصباح جاءنا أبو السعيد، ينفث غليونه، ورائحة القمبز تنبعث منه. أخبرنا أنهم انتشلوا حوالي عشرين جثة من الملجأ، ومن الصعوبة البالغة انتشال باقي الجثث، إذ لا امل في العثور على أحياء.. أحضروا لنا بعضهم، ولكنهم كانوا جثثًا هامدة.
وهكذا كانت مأساة أخرى.. ماذا لو كان الصليب الأحمر الدولي قد وصل الينا!! هكذا توزعت أسباب الموت في تل الزعتر، من شهداء الماء، إلى شهداء الملجأ، وشهداء المتراس والموقع...
اشتد القصف على المخيم مع انتصاف النهار. هكذا كانت تنهمر علينا وجبات القصف الشديد على دفعات.

الثلاثاء 27 تموز

جاءتني الممرضة في السادسة صباحًا لتخبرني إن «إيفا» تشعر بوجع ومغص في اسفل بطنها، وكانت حاملاً بشهرها السادس، قبل يومين أصيبت الغرفة التي كانت فيها بقذيفة مباشرة، نقلناها بعد ذلك إلى مكان اكثر أمانًا. جلستُ بجانبها اسألها عن الأوجاع، ثم قمت بفحصها،لأجد أن هناك عملية إجهاض مكتملة، وفي مراحلها الأخيرة.. ساعدتها في ذلك، وبكت إيفا، في تلك اللحظة كما لم تبك من قبل.. قبل ذلك لم أر لها دموعًا، كانت حريصة جدًا على الجنين، ولكن قذائفهم لاحقت حتى الجنين في رحم إيفا. أعطيتها العلاج اللازم. في هذا الصباح تناولت فنجانًا من القهوة.. كانت صاحبة البيت حيث تسكن إيفا، قد احتفظت ببعض القهوة. إيفا تجهش بالبكاء، حزنًا على فقدانها الجنين، فهو كل ما تبقى لها من زوجها يوسف. حدثتها عن الأوضاع.. عن العطش وعن الأطفال التي تموت من الجفاف. ثم جاء من يخبرني عن وصول إصابات إلى قسم الطوارئ، فتركت إيفا وخرجت مسرعًا لأقطع المسافة جريًا تفاديًا للقنص. وصلت مدخل الطوارئ، لأجد المدخل مكتظًا بالجرحى والمصابين، ومن بينهم عائلة بكامل أفرادها. لقد سقطت قذيفة على العائلة، الأب وألام وفتاتان صغيرتان. مات الأب على الفور. قدّمنا الإسعافات اللازمة

للام والفتاتين، ووسط الصراخ والعويل على الأب، أرسلنا من يهتم بدفنه. كانت هناك لجنة لدفن الموتى في المخيم، مهمتها دفن الشهداء.

لقد تقلّصت بشكل كبير خدماتنا الطبية، بسبب فقدان الأدوية واللوازم الطبية. لم يعد باستطاعتنا إلا وضع الجبائر، وتنظيف الجروح وتضميدها. كنا نستعمل الماء والملح لتنظيف الجروح. وكم كان الماء عزيزًا ونادرًا..

الأربعاء 28 تموز

في صباح هذا اليوم جاء المقاتل «مازن»، ليخبرنا أنّه اكتشف صفيحة مليئة بالمازوت، لقد كان خبرًا سعيدًا لا يُصَدّق! صفيحة مازوت تعني تشغيل المولد الكهربائي ست ساعات. مما يعني أن باستطاعتنا ضخ المياه للشرب. وأيضًا للاستحمام، لكن ليس بالمفهوم الذي نعرف، استحمام مع اقصى درجات الاقتصاد، بكل قطرة ماء.

الساعة الحادية عشرة، توجهنا إلى المستشفى، وقمنا بتشغيل المولد الكهربائي. كنا في أحيان كثيرة، نجد صعوبة في تشغيله، لعدم صلاحية البطارية، أو بسبب عُطل طارئ، ومع ذلك، كنا ننجح في إصلاحه وتشغيله.

في تلك الليلة الهادئة نسبيًا، اشتغل المولد الكهربائي، وكان صوته أشبه بصوت سفينة بخارية، تمخر عباب البحر. وعلى صوته، بدأت القوات الانعزالية تُطلق رصاصها. وكنا قد وضعنا البراميل لتعبئتها، بجانب غرفة مجاورة لغرفة العمليات تحت الأرض، في مكان آمن، من القنص وفي نفس الوقت كنا نملئ خزانًا كبيرًا قريبًا، من معمل الزعتر. حيث وصلنا كهرباء المُولّد بالبئر الآخر، فهرع الناس بالجملة طلبا للماء.. وقامت جلبة كبيرة كان من الصعب تنظيمها، ففقدان الماء، وعدم التأكد من الحصول عليها مرة أخرى، وحب الحياة، وجفاف الأطفال وموتهم، سيطر على عقول الأهالي. وكانت الغريزة أقوى.

لقد كانت رهبة موت الأطفال نتيجة الجفاف، بسبب نقص الماء ماثلة أمام أعين الأمهات ومع ذلك، وفجأة وجدناهن ينتظمن في صف، وبهدوء.. كان عليهن الانتهاء بسرعة قبل بزوغ الفجر. وعندها تصبح الطرق غير آمنة وخطرة نتيجة القنص.

قمنا بتخزين بعض البراميل المملوءة ماء، وذلك لاستعمال المستشفى والجرحى والمصابين. عُدنا إلى الطوارئ، وعادت المستشفى إلى هدوئها ورهبتها. وعلى الدرجات الأربعة عند الباب، يجلس أبومحمد الحارس، وبندقيته بجانبه.. شاردًا في أفكاره يدخن سيجارة من القمبز، وأنين الجرحى والمصابين بالغرغرينا، يخدش هدوء ذلك الليل..

الخميس 29 تموز

طُلب من طه، فني الأشعة القيام بقيادة مجموعة، لنسف الطابق الأول في بناية، كان يتمركز فيها القناصة على مدخل المخيم.. أخبرنا طه بذلك وتمنينا له التوفيق في مهمته، آملين أن نراه ثانيةً. وودعنا أنا والدكتور عبد العزيز..

طه كان نجارًا ماهرًا، وكان سابقًا قد أجرى دورة متفجرات عند احدى التنظيمات الفلسطينية، قبل أن يلتحق متطوعاً في الهلال الأحمر.. وفي المدة الأخيرة عندما تركنا فني الأشعة، كان طه قد تعلم مهنة فنيّ أشعة، وكان ذلك من خلال مساعدته لفني الأشعة السابق، وأصبح مصور الأشعة للمستشفى..

كانت الساعة تقارب العاشرة ليلاً، عندما ذهب طه بمهمته، ولكن بعد وقت قصير.. سمعنا دوي انفجارات تهز أركان البناية. وعاد طه محمولاً، من رفاقه في المجموعة وهو يتألم. لقد أصيب في يده بجروح بليغة، بعدما نفذ المهمة. كان جرحًا بليغًا، أجريت له الجراحة اللازمة، وأعطيته بعض المسكن، وتم تحويله إلى احدى النقاط الطبية. كان وحيدًا لأربع أخوات، استشهد والده في حادثة باص عين الرمانة الشهيرة، والتي كانت الشرارة، التي أشعلت الحرب الأهلية في لبنان. كان يصرخ من شدّة الألم عند وصوله، وقد تملكه الخوف من أن تقطع يده، ولكنني بعد الفحص طمأنته إلى أن حالة الشرايين جيدة، وكذلك الأوتار والأعصاب، وأنّ النبض طبيعي، وعلينا أن نعالج احتمال الالتهاب. صحيح أنّه أصيب، ولكن بعد أن نفذ المهمة.. وخفف عنا الكثير، من حالات القنص المميتة..

الاثنين 2 آب

وردتنا إشارة لاسلكية من القيادة أن جميع الأطراف، قد وافقت على نقل الجرحى، وأنّه يجب علينا أن نُعدّ الترتيبات اللازمة لذلك..

كانت ليلة متعبة. كان علينا أن نختار خمسين جريحًا، هكذا وصلتنا التعليمات. فأعطينا الأولوية للأطفال الذين يعانون من الجفاف، وإصابات البطن والجروح الشديدة الالتهاب، وحالات الغرغرينا التي تحتاج لجراحة. كان الاختيار صعبًا أن نختار خمسين، من بين مئات الجرحى الموزعين في عدة نقاط طبية. أعددنا اللازم، والشك يراودنا في أن يتم تنفيذ العملية، كما حصل في مرات سابقة. حيث يتم الاتفاق، ولا يسُمح للصليب الحمر الدولي بالدخول.

الثلاثاء 3 آب

في العاشرة صباحًا وبعد الاتصالات اللاسلكية مع القيادة، أخبرتنا أجهزة المراقبة في المخيم أن هناك قافلة من السيارات ترفع شارة الصليب الأحمر الدولي، تتقدم نحو المخيم من جهة الجنوب، قادمة من مستديرة المكلس، على طريق بيت مري. وأن الساحة التي كانت ذات يوم ملعبا لكرة القدم لشباب التل، قد حددت لتكون مكانا لإخلاء الجرحى اليها، ومن ثم إلى السيارات التي ستنقلهم. توجهنا إلى المستشفى، الذي اتخذناه مكانًا، للإشراف على إخلاء الجرحى. وبعد قليل حضر الأشخاص الثلاثة. وهم الذين حضروا في المرة الأولى. وكان عناقًا حارًّا بيننا، كأننا نعرف بعضنا من زمن طويل. قدموا لنا السجائر لمعرفتهم أننا نفتقد ذلك. كان يومًا حارًّا جدًّا. وبدأنا نضع الخطوات اللازمة، لنقل الجرحى. لقد تمَّ نقل الجرحى من عدة نقاط طبية إلى المستشفى. نقلوا على الأبواب الخشبية، وعلى فراشهم والحمالات، ومن هناك كان على فريق الصليب الأحمر، نقل الجرحى إلى السيارات. كان هناك عدد من متطوعي الصليب الأحمر اللبناني معهم . كان على د. عبد العزيز، تسجيل الجرحى وإرسالهم لي، لأشرف مع الدكتور باسكال، على التأكد من الإصابة، وتأمينهم في السيارات، حتى لا يحدث التباس. كنت أقف في منطقة مكشوفة، في الملعب تحت مرمى نيران القوات الانعزالية، وقد زرعت بأعلام بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وتمّت العملية في اليوم الأول بهدوء ونظام. ورغم المخاطر التي كنا نتوقعها، تمّ نقل الدفعة الأولى من الجرحى.

كانت المراهنة على احترام القوات الانعزالية، لاتفاقات غير مأمونة الجانب، حتى ولو كانت مع الصليب الأحمر الدولي. بدل الخمسين جريحًا استطعنا إقناع الصليب الأحمر بأخلاء 91 جريحًا وطفلاً.. كان همُّنا الأول هو أكبر عدد ممكن في ذلك اليوم، لإنقاذهم أولاً، وتوفير الأدوية، وتوفير الماء والطعام لمن تبقى من الجرحى...

أرسلنا «إيفا»، مع الدفعة الأولى، والعديد من الأطفال الذين يعانون من الجفاف. وقبل أن تتحرك القافلة، ودّعونا بحرارة وانتظروا بضع دقائق، حتى أستطيع العودة إلى المستشفى. من ذلك المكان المكشوف رفعوا بعدها أعلامهم وتحركوا. فالهدنة قائمة ما دام الصليب الأحمر الدولي في المخيم.

فعلوا ذلك حتى لا يبدأ القصف ونحن في مكان مكشوف. ومن أحد الأبنية داخل المخيم، تابعنا تحّرك القافلة بواسطة مناظير مكبرة، وأيدينا على قلوبنا لا ندري ما سيحدث. وما أن غادرت القافلة، حتى بدأ القصف على المخيم من جديد.

أوقفت القوات الانعزالية القافلة لمدة 45 دقيقة، في منطقة القلعة. كنا نراقبها على الرغم من القصف العنيف على المخيم. لم نكن لنميّز، ماذا يحدث، خلال فترة الانتظار تلك. كانت

لحظات عصيبة، بعدها شاهدنا القافلة تتحرك، وتنفسنا الصعداء. وبعد وقت قصير حمل لنا جهاز اللاسلكي، البرقية التالية: "وصل لطرفنا 91 جريحًا ". وذلك ردًّا على برقية كنا قد أرسلناها للقيادة بأنّ 91 جريحًا وطفلاً قد تمَّ إخلاءهم مع الصليب الأحمر الدولي هذا اليوم ...

كانت فرحة أهالي المخيم كبيرة، لإنقاذ هذا العدد من الجرحى والأطفال. ثمَّة أشخاص قد أنقذوا من المخيم، وأنّ باستطاعتهم أن يُحدّثوا العالم عما يدور في داخله. كانت فرصة ثمينة للرأي العام العالمي، كي يشاهد الأطفال الذين يعانون من الجفاف والجرحى المنهكين، وليس كما يدعي إعلام القوات الانعزالية، بأنه مخيم للإرهاب والعسكر، وليس هناك من مدنيين...

كانت معنوياتنا عالية في هذا اليوم. لقد انتصرت القضية الإنسانية، قضية إخلاء الأطفال والجرحى. ولم يعد للقوات الانعزالية، ما يبررون به قصفهم، خاصة أن القضية أخذت بُعدًا عالميا..

كانت الدفعة الأولى تجربة، وبنجاحها جاءت الأوامر بالاستعداد لإخلاء ونقل مائتي جريح. كانت عملية اختيار العدد المطلوب، أصعب ما يوجهنا كأطباء.. هناك آلاف الجرحى، ومعظم الإصابات تعتبر بليغة لعدم توفر الدواء واللوازم الطبية.

وصلت البعثة الدولية للصليب الأحمر ثانيةً، مندوب الصليب الأحمر أخبرنا أنّ القوات الانعزالية، صادرت زجاجات الماء، والأدوية، التي كانوا يحملونها معهم إلى المخيم. كنا نودّ جاهدين لو استطعنا العودة والعمل في المستشفى، لو توفرت لنا المحروقات والأدوية، والمعدات الطبية اللازمة. في تلك الليلة وبعد حصولنا على كمية من المازوت، استطعنا ضخ كمية من الماء، وبعد أن وزّعنا المياه على الأهالي، قمنا باستعمال بعض الماء لتنظيف المستشفى، آملين أن يؤمِّن لنا الصليب الأحمر الدولي، المحروقات والأدوية لنتابع عملنا في المستشفى.

الأربعاء 4 آب

حضرت بعثة الصليب الأحمر، في الوقت المحدد. وخرجت ثانية مع الدكتور «باسكال»، لاختيار الإصابات الأكثر خطورة، ولكن فوجئنا، بمئات الجرحى. كان جميع الجرحى، يودّون أن يكونوا ضمن من نختارهم في هذا اليوم. كان الدكتور عبد العزيز، يقوم بالاختيار الأول، للجرحى وإرسال القائمة، لنا مع ورقة موقعة منه. وكنا الدكتور باسكال وانا نجري الاختيار النهائي.

كان الجو متوترًا. أعداد هائلة من الجرحى والمصابين، أحضرهم ذووهم على الأبواب الخشبية وعلى فراشهم، والسلالم الخشبية، والحمّالات. احتشدت الجموع الغفيرة من الأهالي، والكل يصرّ، على أن يكون جرحاهم، ممن سيتم إخلاءهم هذا اليوم.. وفي هذا الجو المتوتر، كان علينا أن نضبط عملية الاختيار والإخلاء.. وتقديرات الإصابة بالنسبة للأهل، تختلف عن تقديراتنا الطبية. وكان علينا أن نواجه، الأهالي بواقعية. استطعنا أن نخلي 243 جريحًا من بينهم الأطفال. وبعد أن نقلناهم إلى شاحنات الصليب الأحمر، فجأة انهمر الرصاص علينا. وعندها أحاطني أعضاء البعثة، ورفعوا أعلام الصليب الأحمر الدولي عاليًا، وأوصلوني إلى مدخل المخيم بحمايتهم، وانتظروا حوالي عشر دقائق قبل أن يتحركوا حتى أتمكن من الوصول إلى مركز الطوارئ. وبعد أن تحركت القافلة، بدأ القصف من جديد، أخبرتنا البعثة بأنهم لا يستطيعون إحضار أي محروقات أو أدوية أو أي لوازم طبية، حتى انهم هذه المرة صادروا زجاجات المياه التي حملوها معهم..

بدأنا نعيش في دوامة المراجعات. وأصبح الوضع أكثر إرهاقًا، كانت عملية اختيار الجرحى من أصعب المهمات، لتداخل الإنساني مع المهني، وصعوبة تفهم الأهالي لذلك. كان الأهالي ينتظرون موعد الدفعة الثالثة، وإمكانية إرسال ذويهم من الجرحى. مع هذه الدفعة، وأخذت قضية المحروقات والمياه تتفاقم، وتزداد، وهذا ما يؤثر على عملنا وأدائنا الطبي.

كنا نُخلي عددًا من الجرحى، لنستقبل عددًا جديدًا مماثلاً لم يتم إخلاؤه ، لوائح اختيار الجرحى للدفعة القادمة في تغير مستمر، وكان العدد الأكبر هو من جرحى الماء، وخاصةً من النساء.

الخميس 5 آب

في هذا اليوم لم تصل قافلة الصليب الأحمر، كما كان متوقعًا، إنما حضر الأطفال، الذين لم يبق منهم إلا الهياكل من شدّة الجفاف. وصلت في هذا اليوم أكثر من خمسة عشرة حالة جفاف أطفال، تحملهم أمهاتهم وهن يصرخن: «دخيلك يا دكتور ابني.. ابني». أطفالٌ، لم يبقَ منهم إلا الجلد والعظم، والعيون الغائرة، ويتنفسون بصعوبة. والأمهات يُلححن في الطلب والرجاء. الماء.. الماء، كان في تلك الأيام، كل شيء. وتقول امرأة: «يعني ما في فايدة يا دكتور... أبحش له قبر سلف...». ويصعب عليّ الجواب.. وأنا اسمع نفس السؤال.. من كل الأمهات. كبرت نفسي بهؤلاء النسوة، وبطولاتهن.. لأنه لم يكن هناك أي طلب أخر، يدل على الانكسار والاستسلام!!

في المساء كنا نستمع إلى الأخبار، من إذاعة صوت الثورة في بيروت الغربية. الجرحى الذين غادرونا مع الصليب الأحمر بالأمس، يضربون عن الطعام، تضامنًا مع أهالي تل الزعتر، ويطلبون منا المزيد من الصمود والصبر. كان الخناق يزداد على أهل المخيم.

الماء والحصول عليه من أصعب المهمات. ويأتي الليل لأسمع» طقطقة المواعين».. وكأنها مظاهرة صامتة، تتجه نحو مصدر الماء الوحيد، ومرة أخرى نستعد ونستنفر قوانا.. فالذهاب لإحضار الماء، يعني بالنسبة لنا مزيدًا من الإصابات. وتمُرّ ساعات الليل متثائبة بعد نهار حامي الوطيس. وأبو السعيد، يبذل كل ما في وسعه للحصول على بعض الماء لعائلته ولنا في المستشفى.

كان دائمًا يريد لنا الاستمرار في عملنا. كان أحيانًا يأتينا فرحا، كأنه حقق انتصارًا كبيرًا ! لقد أحضر زجاجة ماء. نحاول النوم في تلك الليلة. ولكن وقع الحصار، ووجوه الأطفال وعيونهم لا تفارقني، وأفكاري تذهب بعيدًا.. هل تصل النجدة؟ هل يشقون الطريق الينا؟ هل يصلون لننقذ من تبقى من الأطفال!

وجاء سلمان، ليوقظني من شرود أفكاري، ويخبرنا بتلقي برقية لاسلكية من القيادة، تفيد بأن بعثة الصليب الأحمر الدولي ستحضر في صباح اليوم التالي، لإخلاء الدفعة الثالثة، وأن علينا تدبر الأمر..

الجمعة 6 آب

بدأ القصف مبكرًا. سقطت قذائف كثيرة، حول مركز الطوارئ. أيقظوني على عجل لوصول العديد من الإصابات. وفي العاشرة صباحًا هدأ القصف، ووصلت سيارات بعثة الصليب الأحمر الدولي. استقبلناها. كانت الحالة النفسية لأهالي المخيم في تدهور مستمر، فالأمل يتراجع، وأصبحت خيارات الأهالي محتومة إما الموت، أو أن يكونوا من عداد الجرحى، ومحظوظ من ينقل مع بعثة الصليب الأحمر إلى بيروت الغربية..

ذهبنا عبد العزيز وأنا إلى المستشفى واستقبلنا البعثة. وبدأنا عملية اختيار الجرحى والإخلاء سريعًا، من بين الأف الجرحى، وقد حملهم ذووهم منذ الصباح الباكر. اكتظت المنطقة المحيطة بالمستشفى بالجرحى والأهالي عندما سمعوا بقدوم الصليب الأحمر الدولي، أخلينا ستة وسبعين جريحًا، وفجأة توقفت عملية الإخلاء، إثر خرق القوات الانعزالية للهدنة، وبدأوا بإطلاق النار علينا، فأصيب أحد الجرحى وهو على الحمالة، فقتل على الفور. وأصيب أحد الشباب الذين كانوا يساعدون في عملية الإخلاء، إصابة قاتلة في صدره. عندها لم يعد باستطاعتنا متابعة العملية، خوفًا على أرواح الباقين. وتراكض الأهالي، هربًا إلى الملاجئ، عائدين بجرحاهم الذي لم يكتب لهم الحظ بالإخلاء. وعاد القصف مجددًا.. وشنّت القوات الانعزالية هجومًا على المدرسة، عند مدخل المخيم، لا يفصلهما عنه سوى الشارع، وقامت باحتلالها.

تراجع المقاتلون إلى مواقع جديدة داخل المخيم، وتحصّنوا استعدادًا لهجوم جديد.. كانت كل عملية إخلاء للجرحى، عملية رفع لمعنويات المقاتلين والأهالي.

كنت أفتش في تلك الليلة، في حقيبة ملابسي. وعندما دسست يدي بإحدى جيوب معطفي تعثرت أصابعي بعلبة سجائر منسية!! ومنذ زمن، كانت لنا وليمة حقيقية، استفاد منها جميع من تواجدوا في تلك اللحظة، لقد استطاع كل منهم أن يدخن سيجارة كاملة في هذا اليوم!

مع زخات مدفع الرشاش، التي كانت تدّوي على مقربة من النافذة، كنت أحاول إن استرق وقتًا للنوم. كان دويّ القذائف وزخات الرشاش، والقذائف، تحول دون أن يكون نومي متواصلاً.. لقد تعودنا على النوم لفترات قصيرة، على أي حال! وأحيانًا ساعة واحدة تكفي.

السبت 7 آب

كانت الجبهة الشرقية، موقع كرَ وفرَ. وكانت مجموعة من المقاتلين تتراوح أعمارهم بين ألـ 18 والـ 20 سنة، يقومون بعمليات بطولية ليلية، ضد مواقع القوات الانعزالية. وفي النهار يدافعون بصلابة وحزم. حاولت بعض الأليات التقدم نحو المخيم، ولكن المدافعين، أوقفوا التقدم وأعطبوا حوالي 6 آليات، وشاركت المدفعية من مواقع القوات المشتركة الفلسطينية اللبنانية في الجبل في صد الهجوم. كانت ليلة عامرة بالتفاؤل، وكانت معنويات المقاتلين عالية حتى أنهم أقاموا حلقة، ورقصوا فرحين بالانتصار ووقف الهجوم.
جاءنا خبر بأن بعثة الصليب الأحمر الدولي، ستواصل إخلاء الجرحى غدًا.

السبت 8 آب

بدأ الأهالي يتجمعون حول مقر الطوارئ منذ الصباح الباكر. يحاولون الاستفسار عن صحة قدوم بعثة الصليب الأحمر، لإحضار جرحاهم من أماكن وجودهم، إلى مركز التجمع الذي تحدّده البعثة. كانوا أيضًا موزعين على الملاجئ مع الأهالي. كانوا يحضرون لقسم الطوارئ فقط للغيار على جروحهم.

استيقظت باكرًا لأباشر بكتابة اللوائح بأسماء الجرحى، الذين اتفقنا على إخلائهم هذا اليوم.. وكالعادة، كان الاختيار بالنسبة لي وللدكتورعبد العزيز وباقي الممرضين في غاية الصعوبة. وذلك للأعداد الكبيرة للجرحى، وغالبيتهم ممن حالاتهم تستدعي نقلهم للعلاج والرعاية، بسبب انعدام إمكانية أية رعاية، وعدم توفر الإمكانيات. لذلك كان يومًا متوترًا.
في الساعة العاشرة، أخبرنا الممرض محمود، أنّ قافلة بعثة الصليب الأحمر تتقدّم نحو مكان الإخلاء.. ذهبنا إلى المستشفى لإجراء الترتيبات العملية لنقل الجرحى.

نقلنا عددًا من الجرحى، ومن بينهم عدد كبير من الأطفال، إلى سيارات الصليب الأحمر، وفجأة بدأت القوات الانعزالية تطلق النار علينا، في مكان الأخلاء، حيث تجمع المئات من الأهالي في وداع جرحاهم.. خفنا من كارثة حقيقية، طلبنا إيقاف العملية وناشدنا الأهالي بالتفرق ومغادرة المكان، والتوجه إلى الملاجئ فورًا. تحدثنا مع أعضاء الصليب الأحمر

الدولي. إن القضية لم تعد إخلاء الجرحى فقط، القضية أصبحت أكبر من ذلك بكثير، إن الأهالي جميعًا أصبحوا مشروع جرحى ومصابين، وبات التفكير بالأطفال الذين يموتون عطشًا أمرًا محتمًا، وأن عليهم أن يأخذوا ذلك في الحسبان.
إن معظم الأهالي إن لم يكونوا جرحى، فهم من الأطفال والنساء والشيوخ، وإن التفكير بإنقاذهم هو هاجسنا الأول كأطباء.
لم نكن ندافع عن الأبواب والشبابيك، ولا عن أزقة المخيم الضيقة، كنا ندافع عن الأنسان داخل المخيم، وأن الانعزالين ليسوا مأموني الجانب. جلسنا الدكتور عبد العزيز وانا وسلمان القائد العسكري، وبحضور مسؤولي الحزب الشيوعي، والجبهة الدمقراطية لتحرير فلسطين، في الغرفة التي كانت ذات يوم غرفة استراحة للأطباء في قسم العمليات، بدأنا نفكر ما العمل لإنقاذ الأطفال والجفاف يطاردهم ويصطاد منهم يوميًا الاثني عشرة والخمسة عشرة. والحصول على الماء يلتهم القسم الأخر من الأهالي.
في المساء مررنا على غرفة اللاسلكي. وكانوا يستعدون للانتقال إلى مركز التموين، وهو بناء أكثر تحصينًا يشبه "البونكر" تحت الأرض، ومحاطًا بأكياس الرمل، ليكون مقرًّا جديدًا للقيادة المحلية. وهكذا ابتعد عنا جهاز اللاسلكي، ولم تعد الأخبار تصلنا كما في السابق. وأصبح الطريق، بين الطوارئ ومركز التموين، محفوفة بالمخاطر..
بدت الليلة هادئة. ولكن هل نام التل؟ أزيز الطلقات يمزق سكون الليل، والقذائف المتقطعة تذكرنا بأننا في حصار. عُدت إلى الطوارئ، لقد وضعت لي فاديا قليلاً من الماء جانبًا، مضى وقت طويل قبل إن أتذوق طعم الماء.

الاثنين 9 آب

القتال يدور حول الأبنية القريبة من مصدر الماء الوحيد. والقوات الانعزالية تحاول القضاء على الأمل في الوصول إلى الماء، لتضييق الحصار، وبث اليأس في نفوس الأهالي. جاءتنا المقاتلة «أبوعلي»، لتقول: «إنها قادمه للتو من محور القتال، وأن هناك هجومًا كبيرًا تتعرّض له التلة.. «تلة القيادة العامة». لكن التلة حصينة، ويصعب الاستيلاء عليها بسهولة، وأن المقاتلين يستبسلون في الدفاع عنها ويعرفون، أنهم يدافعون عن آخر نقطة ماء في المخيم. أرسلت التعزيزات الممكنة. وفي المساء، جاءت "أبوعلي"، تحمل بندقيتها على كتفها ووجهها وملابسها مكسوة بالغبار والتراب، وعليها مظاهر الإعياء والتعب، طلبت سيجارة وبدأت تدخنها بشراهة، متكئة على بندقيتها، مثقلة من شدّة

الإعياء. وتخبرنا كيف صدّوا الهجوم الكبير والكثيف، وكيف أن القصف المدفعي الشديد للقوات المشتركة من الجبل ساعد في صد الهجوم، ودحر المهاجمين.. اقترب المساء، والقذائف تواصل سقوطها وكذلك رصاص القنص المتقطع. كل هذا كان يرسم ملامح ذلك اليوم العصيب والشديد التوتر.

جاءنا مسؤول التمريض «احمد أورفلي»، مساء ليخبرنا أنّ الوضع في منطقة الحسينية رأس الدكوانة ليس على ما يرام. فقد كثفت القوات الانعزالية حملاتها النفسية، عبر مكبرات الصوت على المواقع القريبة، عبر الترغيب والترهيب، فأثرت هذه الحملة في نفوس إثنين من المقاتلين، ضعفوا وهربوا مستسلمين للقوات الانعزالية. أثّر ذلك في الوضع بشكل عام، وسرت همسات وهمهمات كثيرة. وقامت القيادة المحلية على أثر ذلك، بتعزيز المواقع، بما أمكن، لتُعيد الثقة والطمأنينة لنفوس المقاتلين والأهالي. وكانت حرب مكبرات الصوت على أشدّها بين الطرفين في ذلك المحور....

الثلاثاء 10 أب

شدّدت القوات الانعزالية، قصفها، وبدت مُصِرّةً على اقتحام التلة، وهي الموقع الأخير للماء في المخيم. صباح هذا اليوم بدأ القصف مبكرًا وشديدًا على المخيم. اكتظت كل المراكز الطبية بالجرحى والمصابين، ولم يعد بوسعنا وسط هذا الدمار الكبير، تأمين أماكن جديدة للجرحى، ولإخلاء الجرحى من مركز الطوارئ. كان الوضع العام أصبح مأسويًا للغاية، حيث الغرف مكتظة بالجرحى، صراخهم وأنينهم يتصاعد من كل زاوية، ويختلط برائحة الشموع «التي نستعملها للإضاءة أثناء إجراء العمليات»، والتي كست الجدران بلون قاتم، ورسمت جوًا شديد الرهبة والكآبة. وفي المساء بينما كنت مستلقيًا في زاوية الغرفة من شدّة الإعياء، لآخذ قسطًا من الراحة.. سمعنا صراخًا وعويلاً وأصوات جرحى، قفزت من مكاني لاستقبالهم، وكان الممرضون المناوبون، قد قاموا بتنظيف الجروح بالماء المغلي والملح، ووضعوا الجبائر. ولكن كيف السبيل إلى تهدئة الجرحى، وتسكين آلامهم!! يزداد الأنين، وصيحات الألم، وعلى مقربة منّي كان الشاب خليل، المصاب إصابة بالغة في بطنه.. يصارع الموت، وينتظر قدوم الصليب الأحمر لإنقاذه.

لم يعد بإمكاننا تقديم الخدمات الطبية اللازمة للجرحى والمصابين... ما أشد على الطبيب، حين يقف عاجزاً عن تقديم المساعدة، لعدم توفر الإمكانيات. أصبح الأمل الوحيد معلّقًا

على عودة بعثة الصليب الأحمر لإنقاذ من يمكن إنقاذهم!
عند شروق شمس ذلك النهار، اشتد القصف، والقذائف تساقطت في كل مكان بدون انقطاع. المقاتلون يتراكضون مسرعين، نحو المحور الغربي، عند التلة حيث الهجوم الكبير، علّهم يصدّون الهجوم كما في المرّات السابقة.. إنه الهجوم الثامن والستون على المخيم. يشتد القتال، فقد كان هجومًا بالمدرعات والأليات الثقيلة. المدافعون يحصون ذخيرتهم، وكأنما النهاية قد حانت. والتلة، تقاوم بكل ما توفر من إمكانيات، وبسالة المدافعين وأبوعلي.. كنت انتظر بقلق، الخبر اليقين، عن مصير المعركة.. ومع انتصاف النهار، سقطت التلة!
وعاد "أبو علي" دامع العينين، لتخبرنا أن غالبية المقاتلين في التلة، قد استشهدوا، ولم يتمكن من الانسحاب أحياء، إلا هي وأحد المقاتلين..
وهكذا خسرنا معركة الماء.. لم يعد بإمكاننا الحصول على نقطة ماء، ولم يعد هناك من مبرّر لموت الأمهات من أجل الحصول على ماء. آن الأوان لنصبح جميعا شهداء العطش والجفاف. كان الأهالي ينظرون إلى بعضهم وكأنه القدر المحتوم. أخذ الموت من الجفاف، ينهش أجساد الأطفال الضعيفة ويصطادهم جماعات. بتُّ تلك الليلة، ساهرًا أفكر كيف لنا أن نستمر على قيد الحياة بدون ماء! لم أعد اسمع (طقطقة المواعين)، ولا الجلبة التي تُحدثها النساء في طريقهن لجلب الماء. وكم من الوقت نستطيع تحمل ذلك؟ ما العمل؟ هل هو باستعادة التلة والمحور؟ هل هو بالصمود أكثر، علّهم يصلون إلينا؟ هل هو اتفاق على وقف إطلاق النار وفتح الطريق؟ لاحقتني هذه الأفكار طوال الليل.. لم ينم التل في تلك الليلة كعادته، أصوات الطلقات.. وصليات الرشاشات الثقيلة.. تقطع سكون الليل، وترسم صورة قاتمة للقادم من الأيام.
أخبار الصليب الأحمر لم نعد نسمع عنها شيئًا، فبعد الذي حدث في آخر عملية إخلاء، من خرق للهدنة، أوقف الصليب الأحمر، عمليات إخلاء الجرحى وشعرنا أننا وصلنا إلى طريق مسدود.
وأننا سنموت عطشًا وجوعًا. والصمت يلف العالم على ما يجري، وأننا تُركنا نصارع قدرنا. هكذا كان شعور الناس، كُنا نعتقد أننا ندافع عن الثورة من خلال صمودنا.. كانت لحظة وجدانية يعيشها الإنسان بينه وبين نفسه وأفكاره، كانت الأفكار كثيرًا ما تقفز فوق كل الحواجز الانعزالية، إلى حيث الأهل، حيث والدتي ووالدي في بيروت الغربية.
الأهل الذين غادرتهم لمدة سبع سنوات للدراسة في موسكو، وعدت بعدها، لأكون معهم لمدة أسبوع فقط. وبعدها إلى تل الزعتر.. ولكن كان الأهالي هنا أيضًا أهلي، وكانت علاقتنا الوجدانية قوية، فوَحدنا الألم والصبر والجوع والعطش.. صِرت جزءًا منهم.
عاد أبو السعيد، في اليوم التالي مكسور الخاطر، لم يكن كعادته، فقد أصيب ابنه برصاص قناص في رأسه وأرداه قتيلاً. أحضروه إلى مركز الطوارئ، علّنا نستطيع شيئًا.. ولكنه

كان قد فارق هذه الدنيا الظالمة.. كان شابًا في الثامنة عشرة من عمره. وكان مقاتلاً شجاعًا، انضم إلى قافلة الشهداء المدافعين عن المخيّم والذين كان صمودهم، وشجاعتهم وبطولاتهم فخرًا لأبناء المخيم. كانت هذه أمنية الكثيرين من المقاتلين. أن يستشهدوا دفاعًا عن الأهالي..

ولأنّ الخوف كان يترصدهم من نفاذ الذخيرة، فقد احتفظ كثير من المقاتلين، بالطلقة الأخيرة في جيوبهم.. احتفظوا بها لأنفسهم.. القتال حتى الموت والانتصار!

وهكذا مرَّ هذا اليوم متثاقلاً، وحلَّ المساء، وخفتت أصوات القذائف، كانت ليلة هادئة. والانعزاليون ينتظرون كما ينتظر الذئب فريسته. لم تمر على التل ليلة هادئة كتلك الليلة، منذ بدء الهجوم، كانت ليلةً صافية الأديم، وكان البدر مكتملاً. جلستُ تلك الليلة أمام مركز الطوارئ، اتبادل الحديث مع الممرضين، بشأن ما سيحدث غدًا..

جاء الممرض محمود، ليلاً ليخبرني أن خمسة أشخاص، قد توفوا، هذا اليوم في المستشفى، من حالات الغرغرينا والكزاز، ويحثني على عمل شيء ما، لمن تبقى من الجرحى..

كأنما نسي كل ما تعلمه، وهو الممرض المتمرس ذو الخبرة الطويلة، نسي كل ذلك، أمام الطفرة العاطفية، وهو يرى الجرحى يموتون أمام أعينه الواحد تلو الأخر.. ما العمل؟ وتلك الحالات كان ميؤوسًا من علاجها، ولا دواء إلا المسكنات، والقضية كما قلت أصبحت ليست قضية جرحى فقط، هي قضية الأطفال الذين يموتون عطشًا. قضيتنا جميعًا، وباء العطش، حل بنا جميعًا. كان جوابي مقنعًا لمحمود.

ووسط هذه الأجواء اليائسة والكئيبة، جاء عامل الجهاز لمنظمة "القيادة العامة" ليخبرنا: أنه ربما يتم التوصل إلى اتفاق لإخلاء الأطفال والنساء في الغد. لم نُصدق الخبر. إتفاق على ماذا؟ تلك الليلة لم تأتنا إصابات، كل شيء حولنا هادئ. كان الرهان من قبل القوات الانعزالية، على موتنا عطشا أو الاستسلام. أي الموت ذبحًا كالنعاج. تشعّب الحديث وابتعدنا عن جوهره.. وما لبثنا أن بدأنا بالنكات.. وكأن الهدوء غير العادي، لتلك الليلة، جعلنا للحظات ننسى أننا في حصار. خيوط الصباح الأولى أخذت تتدلى، والليل لملم عباءته ومشى، ليتركنا في مواجهة يوم جديد..

الأربعاء 11 آب

وعاد القصف من جديد.. وصوت المدافع والقذائف، أصبح امرًا عاديًا. فلا صباح في التل، بدون قذائف، وكأنها صياح الديك، يعلن انبلاج صبح جديد.
كان أدهم، نائب المسؤول العسكري قد غادر المخيم، مع الدفعة الثالثة من الجرحى متخفيًا، فقد أصيب بكسور في ذراعه الأيسر، إثر أصابته، في إحدى المواجهات. كان خروجه حسب ما قيل ليُعطي القيادة المركزية الموجودة في بيروت الغربية، تصورًا دقيقًا عن الوضع العسكري، والدفاعي والتمويني داخل المخيم واختلفت الروايات في ذلك. وفي الوقت ذاته، قيل إنّه قد أرسلت مجموعة من أربعة مقاتلين، لتحاول اختراق الحصار وصولاً إلى الجبل، لإعطاء نفس التصور للقيادة العسكرية للقوات المشتركة، في منطقة الجبل عن الأوضاع العسكرية والتموينية للمخيم. ويمر اليوم الثاني على المخيم بدون ماء مطلقًا ومزيدًا من الأطفال يذهبون إلى العالم الآخر، وهم لم يعرفوا شيئًا في عالمنا هذا غير البؤس، والجوع، والعطش والحصار.
وما أن انتصف النهار، حتى مرَّ بنا المسؤول السياسي عبد المحسن، وتحدثنا عن آخر التطورات، والاحتمالات الممكنة. وطلب منّا الحضور إلى مقرّ القيادة، حوالي الساعة الرابعة عصرًا، لاطلاعنا على خبر مهم.
خرجنا عبد العزيز وأنا. وكان خروجنا وللمرّة الثانية يثير شجون الأهالي. كان بالقرب من مركز الطوارئ، تجمهر كبير من الأهالي، يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم، غير مبالين بالقذائف. خرجنا وهي المرّة الأولى التي كُنّا نتجه شرقًا إلى مقرّ القيادة الجديد. كُنّا نعبرُ الأبنية، عبر الجدران المثقوبة تفادياً للقنص، والأهالي ينظرون إلينا بدهشة وترقب، وكأنما قرأوا على وجوهنا شيئًا.. رافقنا نزار، كنا نمر عبر الملاجئ ونسمع همسات النساء: «وين الدكاترة راحين؟ لعل هناك أمرًا ما؟ »
وصلنا إلى مبنى التموين في رأس الدكوانة. الذي أصبح المقر الجديد للقيادة العسكرية المحلية. وهي بناية محصنة تمامًا وتشبه (البونكر) تحت الأرض. محاطة بأكياس من الرمل والمتاريس، سألنا عن سلمان، قادنا أحد المقاتلين إلى مكتبه، حيث تحدّث معنا عبر اللاسلكي أحد الصحافيين الإيطاليين، من بيروت الغربية مستفسرًا عن حالة المخيم وخاصةً الأطفال.. وعن إنقطاع الماء وحالات الجفاف، وعن المعنويات.. بعدها تحدث سلمان مع القيادة. كانت الساعة قد قاربت من السادسة مساء. «سمعنا تعليمات غير مُشفرة من القيادة لسلمان، تطلب من المقاتلين الانسحاب عن طريق الجبل بسرعة وبكثافة

«. بعدها أخبرنا سلمان، أن هناك اتفاقًا قد تمَّ على إخلاء النساء والأطفال بواسطة الصليب الأحمر الدولي، وبإشراف قوات الأمن العربية، وأن عملية إخلاء المدنيين، ستتم غدًا الساعة التاسعة صباحًا. على أن لايشمل الاتفاق المقاتلين والعسكريين.
ودار هناك نقاش حول الوضع داخل المخيم. ومحوره، على أنّ الوضع كان يمكن أن يكون أفضل للمقاتلين، لولا وجود الأطفال والنساء. لأن وجود المقاتلين وحدهم كان سيساعد على المزيد من الاستبسال والصمود، ولكن وجود هذا العدد الكبير من الأطفال والنساء، وما رافق ذلك من عطش وجفاف، وموت، يستدعي أن نفكر في علاجهم وإنقاذهم بالدرجة الأولى.
عدت وعبد العزيز، عبر نفس الطريق التي سلكناها، عبر تلك الجدران المثقوبة، والثغرات عبر الأبنية المهدمة. وصلنا بصعوبة إلى مركز الطوارئ، حيث كان جمع كبير من الأهالي ينتظرون وصولنا بخبر ما. في البداية لم نخبرهم شيئًا، وبهدوء بدأنا باطلاعهم على ما سمعناه عن الاتفاق.
في المساء كانت هناك حركة غير عادية في المخيم، كما لو أن الأهالي، بدأوا يستعدون لليوم التالي. مرّت بنا مجموعة من المقاتلين، وقد جهزوا أنفسهم للانسحاب في تلك الليلة. حضر بعضهم خصيصًا إلى مركز الطوارئ، وسألونا إذا كنا نريد الخروج معهم عن طريق الجبل. كان السؤال غريبًا جدًا بالنسبة لنا، نحن لسنا بمقاتلين، ونحن كطاقم طبي، مهمتنا الأساسية هي علاج الجرحى والمصابين والعناية بهم، والاهتمام بالمدنيين من نساء وأطفال في هكذا أحوال. رفضنا العرض بعدما أرسلنا مع أحدهم بعض الوثائق والصور عن الإحصائيات، وصور العمليات التي كنا قد أجريناها. وكان أن ودّعناهم، على اعتبار أننا سنغادر مع الجرحى والمدنيين من نساء وأطفال وشيوخ، مع بعثة الصليب الأحمر الدولي في اليوم التالي. لم تكن الصورة واضحة تمامًا في هذه الليلة. إن همَّنا الأكبر، كان مُنصبًا على تنظيم عملية إخلاء الجرحى والمصابين الموزعين في عدة مراكز طبية.
كان علينا أن ننتظر.. في هذه الليلة وصل إلينا الطبيبان السويديان الدكتور «لارس»، وزوجته «أجنيتا»، حتى يكونا معنا في اليوم التالي. لم تغمض لنا جفون في تلك الليلة. كنا نعد العدّة لإخلاء الجرحى، ولم نكن لنعرف أين ستتم عملية الإخلاء! وكانت ليلة أخرى مقمرة، صافية الأديم وهادئة. خرجت أتمشى في المخيم تلك الليلة. المخيم الذي فقد ملامحه، ولم تعد الطرقات والأزقة هي ذاتها. مشيت كما لو أنني، أودع التل والشهداء الذين سقطوا هنا.. أودع كل شيء، في الليلة الأخيرة..

الخميس 12 آب

في الصباح كنت انوي الذهاب إلى المستشفى، لإحضار بعض أغراضي الشخصية وبعض الكتب.. وفجأة بدأ قصف عنيف ليس بعيدًا عنّا. وفي طريقي قابلت الممرضين محمود شحرور وأحمد أورفلي، ليخبراني أنهما لم يستطيعا الوصول إلى المستشفى، لأن القوات الانعزالية، كانوا قد وصلوا اليه، وقتلوا كل من كان هناك من الجرحى، بالإضافة إلى الأهالي الذين كانوا يستعملون قسمًا منه كملجأ!

عُدنا إلى مركز الطوارئ، وبدأت أصوات الرصاص، تقترب أكثر وأكثر. إنه ليس اتفاقا بل خدعة، ونشبت معركة كبيرة في الشارع حيث مركز الطوارئ، وكان المركز مكتظاً بالجرحى بالإضافة إلى الكثير من الأهالي، الذين حضروا للاحتماء في مركز الطوارئ.

وبينما كنا نحاول ترتيب أمر نقل الجرحى والأطفال، من المركز إلى بناية مجاورة أكثر أمانًا وإذا بنا نفاجأ.. بأعداد من مقاتلي القوات الانعزالية، وقد وصلوا لمركز الطوارئ من الجهة الشمالية من محاور الدكوانة، وطلبوا منّا التقدم.. سرنا ومعنا الجرحى، نحملهم على ما توفر من حمالات وأبواب خشبية وتوجهنا الى حيث، أخبرونا أن الصليب الأحمر ينتظرنا.. ولكنه كان خروجًا إلى الموت...

كانت أعداد كبيرة من النساء والأطفال بدأت بالخروج.. وكان طريق الخروج من ممر إجباري.. سرت والطبيب السويدي وزوجته وكان الممرضون يتبعونني، وهم يحملون الجرحى. أوقفنا إثنان من المقاتلين الانعزالين إلى الحائط، أمروا جميع الممرضين والأطباء، بالوقوف إلى الحائط. شعرت أنها لحظاتنا الأخيرة، يريدون أن يطلقوا النار علينا. وفيما كانوا منشغلين في الحديث، دعوت الممرضين إلى التحرك بسرعة، والاختفاء بين الجموع المحتشدة من الأهالي الخارجين.

وطلبت ممن كان حولي من الممرضين أن يخلعوا المراييل البيضاء وشارة الهلال، لأنني أحسست بأن أمرًا يُدبر للطاقم الطبي. ولكننا لم نستطع تفادي الحواجز الكثيرة في الطريق. بدأ الوضع يصبح، أكثر خطورة كلما تقدمنا.. والانعزاليون يطلقون النار فوق رؤوسنا، وبين أرجلنا، من كل الجهات. كانوا يفتشوننا ويأخذون كل ما هو بحوزتنا، من ساعات ونقود. الى أن وصلنا طريقًا إجباريًا آخرًا. وكان هناك العديد من المسلحين الانعزاليين.. أوقفونا جميعًا بعدما عرفوا أنني الطبيب والممرضين معي. وكادوا أن يطلقوا النار علينا فورًا.. وفجأة، تقدم نحوي أحد المقاتلين، وقد تعرّف علي، وأخذ يناديني د. يوسف د. يوسف... لقد تعرّف عليّ، وأخذ يعرّفني بنفسه، وأنا من هول ما أشاهد لم أستطع النطق..

وذكرني بأنني أجريت له عملية جراحية، وأنقذته ذات يوم، قبل عدة شهور، عندما أحضر إلى المستشفى، قبل الحصار الأخير. وذلك إثر إصابته في صدره، وكان في حالة خطرة. حاول إنقاذي ولكن الفاشي الآخر، كان يريد إطلاق النار فورًا وقتلنا.

جرت مشاجرة بينهما، وفجأة ظهر أمامنا، وجه مألوف، إنه الملازم (راجح)، وهو من جيش التحرير الفلسطيني، الذين كانوا داخل المخيم.. هرع نحوي سلّم علي، وعانقني، وقدّم نفسه على أنه ضابط سوري. كنت أيضًا قد أجريت له عملية جراحية بيده إثر إصابته، ولقي معاملة حسنة، خلال إقامته في المستشفى كمريض وجريح، فتدخل وحسم الموقف. حاولت جاهدًا السعي، لإنقاذ بقية الممرضين والجرحى، ولكن دون جدوى. وباءت بالفشل كل جهودي.

قادوني وأوقفوني في مدخل إحدى البنايات، ثم التحق بي الأطباء السويديون، وقفنا هناك غير قادرين على الحركة. نشاهد جموع الخارجين من المخيم يمرون أمامنا، ونحن عاجزون عن تقديم أي مساعدة. كنت اسمع الأصوات والصيحات وإطلاق النار، خلف البناية. بعدها شاهدت كيف أن الفاشيين، قادوا الممرضين والممرضات طابوراً اثنين إثنين... وأمروهم بالسير إلى الأمام، حيث لم أستطع رؤيتهم فيما بعد. ولن أنسى نظرات «خالد»، ذلك الفتى المتطوع، كانت عيناه تقول لي الكثير.. ولكني لم أستطع عمل أي شيء.

بعد قليل جاء أحد الفاشيين ببندقية رشاشة، وسمعت صليات كثيفة، وصراخ.. ثم هدأ كل شيء، وخيم سكون رهيب.. وكان هناك ممدوح وخالد وصبحي وبقية الممرضين. وأيقنت انهم أطلقوا عليهم النار عليهم جميعا..

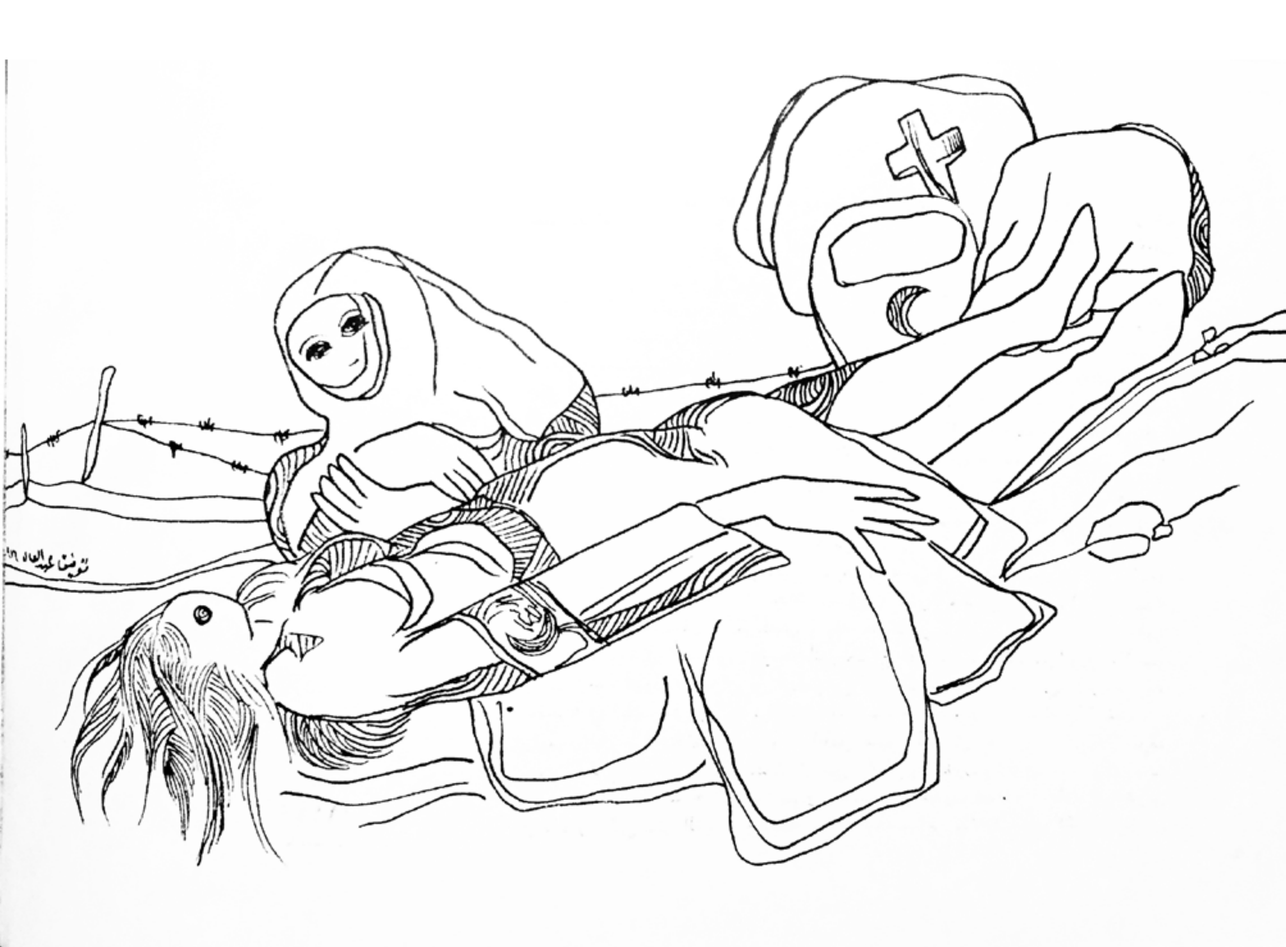
مرَّ شريط المجزرة أمامي رهيبًا.. لا يمكن تحمله أو وصفه. كانوا يأخذون الأهالي جماعات، ليطلقوا النار عليهم.. كان المقاتلون الفاشيون، حسب أمزجتهم ورغباتهم، يطلقون النار عمن يريدون من الأهالي.. الجموع تسير، ووسط الزحام كان يسقط القتلى، بشكل يصعب إحصاءه أو معرفة هوية من يقتل. ووسط مشاهد القتل كان أحد الفاشيين ضخم الجثة، وقد بدا مخمورًا.. ويحمل سكينًا طويلة ملطخة بالدماء .. ويأتي بين الحين والأخر ليمسح سكينه الملطخة بدماء الأهالي الأبرياء، بقميص من كان يجلس بالقرب منهم، في المدخل حيث كنا.

كان يذبح، كما يذبحون الأغنام. ثم يبدأ، التفتيش في جيوب الضحايا. لقد كان مشهدًا تقشعر له الأبدان. كانت مجزرة بكل ما للكلمة من معنى.. في لحظة تتجمد فيها العاطفة. كانوا يأخذون كل ما يجدونه في جيوب ضحاياهم.

مرَّ أحد الجرحى كانوا يدعونه في المخيم «لويس»، كان مصابًا برجله، ويسير على عكازتين ورجله في الجبس. انهالوا عليه ركلاً بأقدامهم ثم رموه أرضًا، ومن بنادقهم الخمسة زرعوا جسمه برصاصهم.. كان منظرًا مرعبًا.

انقطعت عني أخبار الدكتور عبد العزيز، وباقي الممرضين والممرضات. فأنا لا اعرف ماذا

حلَّ بهم! بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة وصل أحد مسؤولي الأمن في القوات الانعزالية، من حزب "الكتائب اللبنانية" مع أحد عناصره، قادنا أنا والطبيبين السويديين ومعنا الضابط السوري راجح.. مشينا حسب أوامره، في الطريق المؤدية إلى خارج المخيم، باتجاه ساحة الدكوانة، كان خروجًا مرعبًا ورهيبًا. مشينا حوالي ثلاثمائة متر، ولكنني أحسست أنها كانت أطول طريق مشيتها في حياتي. كانت جثث الأهالي الأبرياء متناثرة على جانبي الطريق.. والكثير من بطاقات الهوية الفلسطينية متناثرة حول الجثث. جثث الشيوخ، جثث الأطفال، رأيت جثة امرأة حامل. وقد أطلقت النار على بطنها لتوها. والدم ما زال ينزف منها. وتتوالى الجثث أمامي والطريق تطول..



وتطول.. وفي نهاية الطريق، كانت هناك آلياتهم وهم على ظهرها يتلذذون بمنظر القتلى. أخذونا في سيارة المسؤول الأمني إلى مقرّ قيادتهم في منطقة الجديدة. هناك وفي مبنى، عرفت من خلال اليافطة الكبيرة المعلقة على المدخل انه «إقليم المتن الشمالي – الكتائب اللبنانية.“

أدخلوني إلى مكتب الشيخ أمين الجميل، قدّموني إليه بأنني طبيب المخيم. عندما أدخلت إلى مكتبه، لمحت ضابطين سوريين من رتب عالية، غادرا المكتب عند دخولي، ولمحت من خلال النافذة في الطابق الثاني طائرة هليكوبتر سورية رابضة قريبًا من المبنى. نظر الشيخ أمين إلي هازئا.. وقال: ” أُنظر تقولون إنني فاشي.. ويدي ملطخة بالدماء.. وها هي نظيفة ”... بعد أن صافحني مع من كان معه في مكتبه غسلوا أيديهم بالكحول.. كانوا ينظرون إليّ بدهشة، كأنني مخلوق من كوكب آخر.. لم يكونوا ليصدقوا أن هناك بشرًا داخل المخيم. كانوا يظنون أنهم يقاتلون أشباحًا، المخيم مُدمّر كُليًّا.. فأين الناس إذا؟ أين المقاتلون؟ كانوا يسألون أسئلة ساذجة أثارت استغرابي.. حول الأنفاق، والمدافع الكبيرة، حول الصينيين والفيتناميين والصوماليين.. وهناك التقيت برئيس بعثة الصليب الأحمر الدولي، جان هوفليجر، والذي أظهر مهنية عالية وحيادية ملفتة، مرّ بجانبي كما لوأنه لا يعرفني البتة! ولكنّه في نفس الوقت، دخل إلى الغرفة، حيث كنت أتواجد، بعد جهد جهيد، مع مجموعة من المراسلين الأجانب، بينهم مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، ومراسلين فرنسيين، وصحيفة النهار (عرفت فيما بعد منه شخصيًا، أنه فعل ذلك ليسجل وصولي إلى هناك حيًّا.. كانوا لا يريدوننا الإدلاء بأي تصريح، ويريدون التكتم على مصيرنا في ذلك اليوم، حيث القتل والسحل في الطرقات كان سيد الموقف) أخبرته فورًا أن الدكتورعبد العزيز، والطاقم الطبي، كانوا خلفنا، وكانوا ضمن جموع الأهالي ، ولا اعرف شيئا عن مصيرهم، وعلى الفور، تكلم بجهاز اللاسلكي، وتحركت سيارة تابعة للصليب الأحمر الدولي لمنطقة الدكوانة، لإنقاذ د عبد العزيز، وباقي الطاقم الطبي. وبعدها بدأوا التحقيق معي، وحضر أحدهم وقدّم نفسه:

- أنا الدكتور ريشا، مسؤول الإقليم الطبي الكتائبي
- أهلاً وسهلاً
- دكتور يوسف أنت متهم، بالتمييز في معاملتك بين الفلسطينيين واللبنانيين.. والمسيحيين والمسلمين.. كنت لا تُسعف اللبنانيين، وتسحب منهم الدم حتى الموت لتعطيه للفلسطينيين.

وابتسمت لهذا الادعاء.. وكانت أعصابي في تلك اللحظة غير متوترة، كنت أتكلم بهدوء، وكنت مُسبقًا، قد حسمت مسألة الحياة والموت، من هول ما رأيت في ذلك اليوم الدامي.. ولذلك قلت له: هل تعرف ما هو سبب وجودي حيًّا هنا؟ «لقد أنقذني أحدكم، لأنني ذات

يوم، أجريت له عملية جراحية، وأنقذت حياته. تعرّف عليّ أثناء الخروج وأنقد حياتي! وهذا دليل كاف على عدم تمييزي بين الناس كما تدّعي «.

– ولكن هناك شخص، يعرفك وهو في الغرفة المجاورة ويشهد بأنك كنت تمارس التمييز في عملك الطبي ولم تسعف قريباً له حتى مات.

كنت واثقًا من نفسي تمامًا، ولذلك شعرت أنهم يخوضون ضدي حربًا نفسية خاسرة.. فقلت له: أين هو هذا الشاهد...؟ أنا مستعد للمواجهة. ولكن عندي بعض الأمور سأواجهكم بها».

– وسردت له بالأسماء، مجموعة ممن يصفهم حسب الدين والجنسية (فقاموسهم مليء بتلك المصطلحات) كيف أجريت لهم عمليات جراحية، وكيف أنقذت حياتهم وأوصلتهم إلى ذويهم، عن طريق لجنة الارتباط. وواجهته بالأسماء. سردت عليه قصة الجريح، الذي أصيب إصابه بالغة في رأسه، ورصاصة اخترقت إحدى عينه، وكادت أن تكون قاتلة. وكيف أجريت له العملية، وكيف أن المقاتلين في المخيم تبرعوا له بالدم.

– كنت دائم السؤال عن د. عبد العزيز، وباقي الممرضين والممرضات. وكانوا يقاطعونني مطمئنين، إن الدكتورعبد العزيز بخير، وسوف يحضر إلى هنا..

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر، أحضروا د. عبد العزيز، الى الغرفة المجاورة. (كما عرفت منه فيما بعد)، ووجهوا له نفس الأسئلة. بقيت قلقًا، ومشغول الفكر، على مصير باقي الممرضين والممرضات، ممن لم يكونوا ضمن من أطلق عليهم الرصاص. كنت أفكر في مصير الممرضة بهاء، التي كانت بجانبي وقت الخروج، وكانوا يطاردونها. وفريال.. وقد حملت حقيبتي الطبية، وفاديا.. التي لم أرها، منذ خروجنا من مركز الطوارئ.. وتمرّ أمامي صورة المجزرة، وتزداد هواجسي وأتخيلهم جميعًا قد قتلوا.. وكذلك د. عبد العزيز.

بعد انتهاء التحقيق معي، أُدخلت غرفة أخرى، كان فيها أيضًا الشيخ شمس الدين، الذي كان إماما في حسينية في راس الدكوانة. أحضروا لي بعض الطعام، وبدأت مرحلة جديدة فيها شيء من الملاطفة، بعد أن تبددت أفكارهم المسبقة وادعاءاتهم. وكان هناك اتصالات كثيرة من أناس كثيرين، كانوا يطالبون بإنقاذي، وإطلاق سراحي من بينهم جارتنا، سونيا. وكان لها إبنان يقاتلان، في صفوف القوات الانعزالية، و»أبو غرابيت» الأرمني صاحب البناية، حيث كُنّا نقطن في المنطقة الشرقية. حيث عرفتهم من أصواتهم المسموعة في الغرفة المجاورة.

في الوقت الذي كانوا يعتبروننا فيه أسرى حرب، كان من بين الحاضرين أحدهم يرتدي بذلة عسكرية ويدعى (الجنرال)، وقد بدأ يحدثني بلهجة مختلفة، فيها نوع من الاحترام، بعد أن استمع إلى روايتي، وكيف عالجت مرضاي، دون تمييز. وحدث أنّ أحدهم أكد صحة روايتي، عن أحد الذين عالجتهم لمعرفته الشخصية به. والذي كان مرافقًا لمسؤول كبير في القوات الانعزالية، يوم أصيب على مستديرة المكلّس، إصابةً بالغة في ساقه.

أحضروه بحالة حرجة نتيجة إصابة الشريان في ساقه، مع نزيف حاد، بالإضافة إلى كسر مضاعف في عظمتي الساق، فقمت يومها بالإسعافات الأولية اللازمة، وبعد أن تبرع له عدد من المقاتلين بدمهم، ونظراً لخطورة الإصابة، اتصلت بلجنة الارتباط لنقله الى مستشفى، وحسب طلبه، تمّ نقله إلى مستشفى" أوتيل ديو"، حيث خاله يعمل جراحًا في نفس المستشفى.

فَعَلَت روايتي فِعلها على (الجنرال)، وأخذ يُحدثني بأسلوب لطيف، وبلغة تصالحية.. تحدّثنا عن الحرب وأسبابها. خرجنا بعدها خارج المبنى نتمشى في الشارع القريب، كنت مترددًا كثيرًا قبل أن أخرج معه، ولكنني أحسست ببعض الثقة في كلامه.. شاهدت شاحنة وفيها عدد كبير من الرجال تدل ملامحهم على أنهم أسرى.

كانت الساعة الثالثة عصرًا، عندما سمحوا لي بالخروج إلى الشرفة؛ حيث شاهدت قوات الأمن العربية، والتي كنا بانتظارها في الساعة التاسعة صباحًا حسب الاتفاق..

ومن على نفس الشرفة كنت أشاهد مظاهر الابتهاج بالانتصار. حيث يعبرون عن ذلك بنزعة سادية، ويتلذذون بمنظر سحل الجثث والذبح.

وفي الساعة الرابعة، وبعد إلحاحي أحضروا الدكتور عبد العزيز، إلى الغرفة التي كنت موجودًا فيها.

وحضر ممثل الجامعة العربية، الدكتور حسن صبري الخولي، ليتفاوض مع الشيخ أمين الجميل، لإطلاق سراحنا.

حوالي السادسة مساء، استقلينا سيارتين، واحدة للدكتور حسن صبري الخولي، يقودها الشيخ أمين الجميل بنفسه، وسيارة أخرى يقودها (الجنرال) آنف الذكر.. كان الجنرال أصرّ على أن أصعد معه في سيارته، وفجأة خرج الدكتور الخولي من سيارته مرتبكًا وهو يقول: "فين.. د. يوسف ... فين.. د. يوسف "، فأجابه الجنرال أنني في سيارته بأمان، وبدوري طمأنت الدكتور الخولي. كانت خلفنا تقف حافلة كبيرة، تُقل عددًا كبيرًا من الأسرى الفلسطينيين واللبنانيين.

وانطلق بنا الموكب عبر المنطقة الشرقية من بيروت، حيث الحواجز الكثيرة المختلفة الولاءات، وكانت تزيد على اثني عشر حاجزًا. ومَن سَلِمَ من المجزرة في المخيم، فقد قتل وسحل على هذه الحواجز. وصلنا منطقة المتحف، وهي طريق الشام وما كان يعرف بـ "الخط الأخضر»، الذي يفصل بين شطري بيروت. خرج الشيخ أمين الجميل من السيارة، وانتظرنا قليلاً.. كان منظرًا رهيبا لتلك الحواجز.. والجثث المتناثرة وعمليات السحل. وأخذت أتساءل: ماذا حلَّ بنا لو لم يرافقنا الشيخ أمين الجميل! علّني كنت ضحية السكين، التي ذبحت الكثيرين، أو كنتُ من بين تلك الجثث العديدة الملقاة على جانبي الطريق!

تابعنا سيرنا وعبرنا منطقة المتحف، باتجاه بيروت الغربية، ونحن غير مصدقين أننا أفلتنا من قبضة الفاشيين، وكان مندوب الصليب الأحمر الدولي «جان هوفليجر» قد سبقنا

وأوقف سيارته، ونزل راكضًا باتجاهنا.. وكان بيننا عناق طويل وهمس فـي أذني قائلاً: " لم أكن أصدق أنكم ستنجون، كنت أعرف ما كانوا يضمرون لكم."

وتابعت السيارة طريقها بنا عبر بيروت الغربية، باتجاه فندق" كورال بيتش"، على الشاطئ الغربي لبيروت. وكنت فـي الطريق وعبر نافدة السيارة، أرى السيارات والناس، وأماكن عديدة أعرفها واشتقت إليها. وأخذت معالم الحضارة ترجع شيئًا فشيئًا، بعد ذلك الحصار الطويل، وسط الدمار وتحت القصف العنيف.

كان مدخل الفندق يعج بالصحفيين والمراسلين الأجانب، وعدد كبير من الناس ومن بينهم شقيقتي وشقيقي. حيث شكرا الله على خروجنا سالمين، بعد أن فقدا الأمل، حيث أن الأخبار، قد سبقتنا من خلال حديث الأهالي الذين شاهدوا المجزرة، واعتقدوا أننا قُتلنا. مكثنا قليلاً فـي الفندق، وتحدّث معنا كل من الدكتور حسن صبري الخولي، الأخ أبو حسن سلامة، الذي أمّن خروجنا من باب خلفي في الفندق وذلك تفاديًا، للصحافيين والمراسلين. وقادنا بسيارته إلى مقرّ القيادة الفلسطينية فـي منطقة الفاكهاني. وكان لقاء حارًّا مع القيادة الأخوة: أبو عمار، أبو أياد، أبو الهول ونايف حواتمة والدكتور فتحي عرفات رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني. تحدّثنا معهم باختصار عمًّا حدث، ولينتهي بذلك أطول يوم فـي حياتي..

بعد يومين من الخروج، كنت والدكتور عبد العزيز، والدكتور فتحي عرفات فـي الدامور، نختار مكانًا، ليكون مركزًا للهلال الأحمر الفلسطيني. للاستمرار في تقديم الخدمات لمن تبقى من أهالي المخيم.. متابعين طريقنا مع أهالي التل، الذين حفروا فـي وجداني عميقًا، ثلمًا إنسانيًا لن أنساه ما حييت...

.. وبقي بعدها التل.. بمقاتليه.. يصارع ويقاوم إلى أن استشهد ولم يستسلم.. تلك كانت وقائع مذبحة من أبشع المذابح فـي تاريخ النضال الفلسطيني.. اثنين وخمسون يوماًامن الصمود الأسطوري، الذي قاوم أكثر من سبعين هجومًا إنتهت بسقوط المخيم.. عبر ثلاثة آلأف شهيد وأكثر من ستة الأف جريح ومصاب، غالبيتهم من المدنيين.. دون أن يستسلم كما كانوا يراهنون. . .. وبعدها بيومين شق مقاتلي التل المدافعين عنه طريقهم عبر الجبل... خلال معارك ضارية مع القوات الانعزالية ليلحقوا بقواعد القوات المشتركة فـي منطقة الجبل...

لتنتهي بذلك الملحمة الأسطورة لمخيم صغير فـي قلب بيروت الشرقية اسمه " تل الزعتر" كان عاصمة للفقراء.. وكومونة للكادحين.

المراجع

- دور جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني فـي تل الزعتر
- قصة الموارنة فـي الحرب سيرة ذاتية. بيروت 1990
- فلسطيني بلا هوية. أبو أياد فـي أحاديث مع اريك رولو

لمزيد من المعلومات حول تل الزعتر: you tube

Synd 11 8 76

Synd 14 8 76

Synd 15 08 76 doctors press conference

Synd 20 7 76

Liban, 1976 :evacuation du camp de Tel Zaatar

Tell el Zaatar le 12 aout

Synd 7 8 76. Interview of the Red Cross chief

synd 6 8 76. The Red Cross Evacuation of the wounded

Tell Zaatar: souvenir de Edmond Corthesy , delegate du CICR

الوثائق

وثيقة 1 شهادة. الممرضة فريال أبو سويد (صادر)
وثيقة. 2 شهادة الممرض عارف طه
وثيقة 3 رسالة إلى وزير الدفاع بن اليعيزر
وثيقة 4 خارطة تبين مخطط الهجوم على مخيم تل الزعتر

شهادة الممرضة فريال أبو سويد عن يوم الأخير

يوم في الذاكرة

بعد ما يقارب الستة وثلاثون عاما، أكتب ما حدث وما عانيته ورأيته في هذا اليوم الذي لن أنساه أبدا طالما في نفسي نسمة حياة. ذكراه دائما ترافقني كالظل، بل وأحيانا أعيشه في أحلامي، وأستيقظ مرعوبة.

أكتب ما حدث حتى تبقى ذكرى لا تنسى، عبر الأجيال القادمة، خاصة لأولادي وأولاد الأبطال والشهداء من الرجال والنساء بل والأطفال الأبرياء الذين ذبحوا وقتلوا دون ذنب اقترفوه. قتلوا بطريقة وحشية لا إنسانية وبلا رحمة.

التاريخ، الخميس, 12 آب 1976, وهو آخر يوم من أيام الحصار الذي دام ثلاثة وخمسون يوما على مخيم تل الزعتر الذي يسكنه ما يقارب الثلاثين الفاً من العمال والعائلات الفقيرة من الفلسطينيين واللبنانيين وجنسيات أخرى، دون مواد غذائية ودون مواد طبية، ودون ماء.

وبعد قضاء ليلة مرعبة من القصف الشديد وازدياد عدد الجرحى وانتظار الوعود بمجيئ وفد من الجامعة العربية والصليب الأحمر الدولي ، لإخلاء الجرحى والمدنيين من النساء والأطفال، وإذ بصوت مرعب ومخيف، يصرخ وينادي :»دكتور... دكتور أرجوك أن تنقد زوجتي».

خرجت من الغرفة الذي كنت أراقب فيها بعض المصابين بإصابات خطيرة من جراء القصف الوحشي، وإذ بالممرض (محمود فريجه) وثيابه غارقة بالدماء، وزوجته متكئة على كتفه مصابة في كتفها وهي تنزف بطريقة مخيفة، أسعفها الدكتور مع الممرضين وضمد جراحها.

بعد ذلك, بدأت جموع من الأهالي تتكاثر حول مركز الإسعاف ووجوههم مرعبة خالية من أي لون وهم في حالة شديدة من الرعب والذهول, ينادون ويصرخون بأن المسلحين

من حزب «الكتائب اللبنانية» والأحرار أصبحوا على مشارف المخيم يخرجون الناس, وعلينا بالخروج جميعا وإلا سوف نقتل هنا, عند ذلك استعد جميع الممرضين والأطباء «أمثال الشهيد ممدوح أرسلان والشهداء «صبحي وخالد ومحمود», وحملوا الجرحى على حمالات بسيطة جدا, وقادنا الدكتور يوسف والدكتور عبد العزيز, وجميعنا نرتدي الملابس البيضاء حتى نعرف بأنن من الطاقم الطبي , لاعتقادنا أنهم سوف يعاملونا معاملة حسنة, وائتمنني الدكتور يوسف على حقيبته الذي تحتوي على دراسته لجميع أنواع الإصابات الذي تلقيناها وعالجها أثناء الحصار.
اتخذنا الطريق المؤدية إلى ساحة الدكوانة، باتجاه حرش الصنوبر وبين الأبنية المرتفعة.
الجميع كان يتوقع وجود لجنة الارتباط العربية حسب ما إتفق عليه لإخلاء السكان المدنيين.
على مسافة مئتين متر من المسيرة، التقينا بمجموعة من المسلحين الكتائب وهم يحملون الخناجر وبعضهم يحملون البلطات والسكاكين والبنادق.
أوقفونا جميعا جانبا وكان باعتقادنا أنهم سوف يسهلون لنا الطريق لأننا من الطاقم الطبي ومعنا عدد من الجرحى والإصابات الخطيرة.
فجأة وإذ بالممرضة «بهاء الناطور» تصرخ بصوت مدوي ومرعب، سوف يقتلوننا جميعا، علينا أن نتفرق ونخلع الملابس البيضاء، وإلا سوف نقتل جميعنا هنا.
عند ذلك غادرنا بعض المتطوعين الصغار لينجوا بحياتهم، لكن الشباب الرجال الأبطال أمثال ممدوح، وصبحي، وخالد، ومحمود بدأوا يهدؤون من روعة وخوف الجرحى بالقول لهم لن نترككم لا تخافوا إن متنا فسوف نموت سويا.
تابعنا طريقنا بخوف وحذر باتجاه ساحة الدكوانة وأثناء السير كنا نشاهد العديد من الجثث والقتلى المذبوحين ذبحا أو المقتولين بإطلاق الرصاص، على رؤوسهم وهم راكعون على الأرض بطريقة الإعدام.
قبل وصولنا إلى ساحة الدكوانة واجهتنا مجموعة أخرى من المسلحين من «حزب الأحرار وحراس الأرزة والكتائب», صارخين بنا قائلين علينا بالدخول إلى إحدى المراكز الذي يتخذونه مركزا لهم , وكان برفقتي أخي الصغير ياسر وعمره ثلاثة سنوات, ترك والدي وتعلق بي, وحين أخذوني إلى مدخل المركز وبسرعة وإذ بالممرض والزميل (عارف طه) يأخذ أخي الصغير من يدي ويتابع مسيره بين الجموع.
المسلحين حجزوني مع الممرضين الذين يحملون الجرحى، وإذ بأحد الأطباء الأجانب الذين كانوا يعالجون الجرحى في مستوصف الجبهة الشعبية وهو موقوف أيضا والدكتور يوسف عراقي، ولكني لم أعرف مصير الدكتور عبد العزيز.
بدأت الأفكار تتشابك في داخلي عن كيفية التخلص من هذا المأزق.
سمعت أحد الأشخاص يتجادل ويتحاور مع أحد المسلحين، وجهت نظري باتجاه الصوت وإذ به زميل الدراسة «فتحي عجاوي», تجمع عليه مسلحين آخرين واقتادوه إلى المجهول.

حدث في هذه الأثناء بعض الفوضى صراخ وعويل وإذ بمجموعة من النساء والأطفال وهم يصرخون من الخوف، نظرت شمالا ويمينا وإذ بزاوية، استطعت أن أخلع المريلة البيضاء وأخبأها في الزاوية, وبسرعة البرق خلعت المريلة البيضاء ودخلت بينهم لأتابع طريقي تاركة زملائي من الطاقم الطبي والممرضين من خلفي.
تابعت طريقي وأنا أمشي فوق جثث القتلى ناظرة في وجوههم علني أعرف أحدا منهم.

مررت بأحد الأشخاص، كل ما أعرف عنه أنه شاب من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وهو من مخيم برج الشمالي أسمر اللون وأخضر العينين وضعوه بسيارة جيب عسكرية، نظر إلى بنظرة لن أنساها طول حياتي، كأنه يقول لي إفعلي شيئا أنقذيني ولكن لم أستطع سوى أن أنكس رأسي وقلبي يدمع خوفا ورعبا.
بعد ذلك مررت بوالد أحد زملاء الدراسة، وهو مقتول بطلقة في رأسه وهو ما زال يشخر، تابعت طريقي بين القتلى وإذا بأحد أقربائي وهو مقتول بنفس الطريقة، رحمهم الله.
لم أعد أشعر بأي شيء، قدماي لم تعد تحملاني، جسدي يقشعر بردا رغم حرارة شمس الظهيرة، ودونما إحساس وانفعال وإذ بطفلة صغيرة يقارب عمرها الثلاث سنوات تقفز من بين القتلى وتتمسك بثيابي صارخة: «خدوني عند عمتي مريم» وتكون السيدة التي كانت تحضر وجبات الطعام للجرحى والمصابين في مراكز الإسعاف، الطفلة عرفتني لأنها كانت أحيانا تتواجد مع عمتها في مراكز الإسعاف.
واصلت طريقي أحمل بيدي اليمنى حقيبة (الدكتور يوسف)، وباليد الأخرى متمسكة بالطفلة الصغيرة، وإذا بمجموعة أخرى من المسلحين يحاولون أن يأخذوا بالقوة قارورة مياه من أحد الأولاد، وهذا الصبي يعرف عنه أنه متخلف عقليا وهو متمسك بقارورة المياه. عند ذلك تجمع عليه عدد من المسلحين أوقفوه على حائط وانهالوا عليه رشقا بالرصاص حتى وقع على الأرض.
دب الرعب في قلبي وأحسست بعدم المقدرة على متابعة المشي وأن قدماي لم تعد تحملاني ولكن على بالمسير، علني التقي بأحد من أهلي الذي لا أعرف ماذا حصل لهم، وخاصة أخي الصغير (ياسر).
تابعت طريقي ثانية وأنا أسمع صراخ قوي مخيف من وراء الأبنية وهو صراخ المستغيثين من النساء والفتيات وأنا لا أعلم ماذا يحدث هناك.
وكلما اقتربت من ساحة الدكوانة كلما ازداد عدد القتلى على الطريق وازداد صراخ الفتيات والرعب يدب في قلبي والقشعريرة تجتاح جسدي الضعيف.
عند ذلك اصطدمت بثلاثة من المسلحين مدججين بالأسلحة البيضاء مع البنادق، يرافقهم صبي يتراوح عمره ما بين الثالثة عشرة والخمسة عشرة، اقتربوا مني يسألون عن ما إذا كان معي بعض المال ورائحتهم تفوح برائحة الكحول، وهم يترنحون ويرقصون، لم

أستطع أن أفوه بكلمة، حيث أني فقدت النطق من شدة الخوف، وحنجرتي جافة يابسة، عند ذلك وضع الصبي يده في صدري باحثا عن المال، فجأة تذكرت أن والدتي قد أعطتني مئة ليرة في حال تفرقنا لأستعملها عند الحاجة، أخذ مني المئة ليرة، ثم تركوني أتابع طريقي.

وصلت إلى معهد الفندقية في ساحة الدكوانة وعند البوابة رأتني الأخت فادية جواد، هرعت إلى وهي في حالة شديدة من البكاء والعويل، صرخت بي تسأل عن الدكتور يوسف والممرضين وباقي الممرضات وأين هم؟ وماذا جرى لهم، لم أستطع أن أنطق بكلمة غير أن أحرك رأسي شمالا ويمينا. تمسكت (فادية) بأكتافي وهزت جسدي كأنها توقظني من الصدمة التي أصابتني، غير أني أجبتها: لا أعرف، لا أعلم، لا أدري، لقد أخذوهم جميعا ولا أعلم ما هو مصيرهم. ازداد نحيب (فادية) وتركتني لتبحث عن شخص آخر علها تجد من يعطيها الجواب المريح.
بدأت أبحث وأنظر في وجوه الناس علني أجد أحدا من أفراد أسرتي, فجأة رأيت أبي من بعيد وهو يبكي ويسأل عن ابنته (فريال), سمعته من بعيد وهو يصرخ , لقد قتلوها هي والممرضين, ركضت إليه وعندما رآني لم يصدق عينيه, ضمني إلى صدره وهو يشكر الله على سلامتي, سألته عن أخي الصغير(ياسر), وأخبرني أن صديقتي (بهاء الناطور) كانت قد التقت به في إحدى الشوارع بين جثث القتلى وأحضرته إلينا, وكان الصديق عارف قد تركه عندما أوقفه أحد عناصر حزب الكتائب اللبناني, ولكنه أخلى سبيله عندما أبرز عارف بطاقة معهد التمريض في منطقة الحازمية حيث أن عارف قد تخرج من هناك. التقيت بأهل الطفلة الصغيرة التي صادفتها في الطريق وحمدوا الله على سلامتها.
حنجرتي جافة أريد أن أشرب، وإذ بإحدى النساء تحمل زجاجة ماء تسقي أطفالها المجتمعين حولها، فطلبت منها أن تعطيني ولو قطرة، فرفضت قائلة: إنها لا تكفي حتى لأطفالي.
يجب أن أتحرك بسرعة ولا وقت للتفكير، النساء والأطفال من حولي يصرخون ويندبون على من فقدوهم، وهم بحالة رعب شديدة. نظرت حولي يمينا وشمالا لأصطدم برؤية أحد الأشخاص الذي أجريت له عملية جراحية لساقه حيث أنه كانت إصابته بالغة ولكن الدكتور يوسف والدكتور عبد العزيز وضعوا له سيخ حديد في ساقه وشدوه له حتى لا يخسر من طول ساقه «traction», وبقي في المستشفى مدة طويلة ولقد أشرفت على علاجه فترة من الزمن داخل المستشفى. رأيته وهو ينظر إلى بطريقة لم تعجبني، بل أخافتني، وحدق بي طويلا، وأعتقد أنه أحد العملاء. ابتعدت عنه لأبحث عن طريقة أستطيع بها الخروج من المنطقة، ورأيت الكثير من الرجال الأقوياء من كبار مخيم تل الزعتر، أمثال بائع القماش «أبو أحمد لطف» يختبؤون داخل المبنى في الطابق السفلي، ولكن للأسف دخلت مجموعة من قوات الأحرار والكتائب واقتادوهم إلى المجهول.

خرجت من المبنى أنا وأهلي إلى دوار ساحة الدكوانة لأرى أحد الجيران واسمه «أحمد حميد», وهو رجل مسالم جدا وهو يحاول أن يتخلص من إمراه متمسكة به، مرتدية ثياب حالكة السواد، وهي تصرخ أريد أقوى الرجال والشباب لأشفي غليلي، وبجانب المرأة أحد عناصر حزب الكتائب يحمل بيده مسدس وبالأخرى بلطة، أوقف الشهيد أحمد على الحائط ودفع بالمسدس ليد المرأة لتطلق طلقة من المسدس على رأس الشهيد أحمد فأردته قتيلا.
بدأت البحث عن وسيلة لمغادرة المكان , وإذ بسيارة فو لكسفاكن بداخلها أسرة الأخت «جميلة عبد الرازق» ووالدها يتحدث مع السائق ليتوجه بهم إلى المنطقة الغربية, دفعني والدي بقوة إلى داخل السيارة لأجد نفسي جالسة في أحضان والدة جميلة, وأخي الصغير في حضني, حيث لا يوجد مكان آخر في السيارة.
سلك السائق بنا طريق منطقة سن الفيل, فاستوقفنا حاجز من مسلحين الأحرار من كتائب النمور حسب ما يطلقون على أنفسهم, بادروا السؤال متوجهين لوالد جميلة يسألون عن اسمه, أجاب إسمي «محمد», فأنزلوه من السيارة مع أن ابنته حاولت أن لا ينزلوه من السيارة, فأجابوها سوف يلحق بكم لاحقا, وتابع السائق طريقه ليستوقفنا في منطقة المتحف, مقابل مبنى العادلية حيث كان يوجد حاجز آخر للمسلحين, فأوقفونا جميعا واحتجزوا إثنين من إخوة جميلة, واحد يبلغ من العمر الخامسة عشر والثاني السادسة عشر على ما أعتقد, عند ذلك بدأت والدة جميلة بالبكاء وترجو المسلحين ليخلوا سبيل أولادها, لكن دون جدوى, وساقوهم إلى داخل مبنى العادلية دون معرفة مصيرهم حتى الآن.
تابعت السير مشيا على الأقدام من منطقة المتحف مرورا بمبنى سباق الخيل حيث يوجد ما سمي بقوات الردع العربية، تقدمت إليهم وأخبرتهم: «أن المسلحين الكتائب والأحرار وكتائب النمور يأخذون الشباب والنساء والأطفال ليذبحوهم في داخل المبنى», ودلك حتى يستطيعوا أن يفعلوا شيئا، فوجئت بأنه لم يتحرك لهم ساكن، كل ما قالوه لي أن أتابع طريقي ولا أنظر إلى الوراء.
واصلت السير مع (جميلة) ووالدتها حتى وصلنا منطقة البربير، وهناك التقينا بأحد أقربائهم لينقلنا إلى بيته في منطقة الفاكهاني، لكني لم أستطع الانتظار معهم، لأنني أريد أن أعرف إن كان أهلي قد وصلوا إلى المنطقة، لأنه بدأت بعض الشاحنات تنقل العائلات الذي وصلت لمنطقة البربير، بدأت تنقلهم لمنطقة دار المعلمين، حيث أن جميع من تبقى من المجزرة الرهيبة يؤتى به إلى هناك.
أثناء سيري وأنا أحمل أخي الصغير(ياسر) على كتفي لأنه منهك وبدأ النعاس يغلبه، صادفت الشاب «علي عراقي» وهو الأخ الأصغر للدكتور يوسف عراقي، شاهدني من بعيد، ركض سريعا باتجاهي وهو يبكي ويصرخ، بادرني بالسؤال: هل تعرفين شيئا عن يوسف؟ وهل رأيته؟ ماذا جرى ليوسف؟ كل ما أجبته، لا أدري ولا أعرف شيئا، لقد

حجزوه هو وجميع الممرضين، غادرني «على « وهو يصرخ: حبيبي يا يوسف، إين أنت يا يوسف.

بدأت جموع النساء والأطفال وكل من نجى من كبار السن من الرجال، يتجمعون وهم ينوحون ويصرخون، كل منهم يبكي على من فقده في هذه المذبحة الرهيبة، الذي سوف تسجل بتاريخ الإنسانية.

انتظرت طويلا ولا من خبر ولا علم عن أهلي، فقررت أن أذهب إلى بيت إحدى صديقاتي في مخيم برج البراجنة، حيث أنني اتفقت مع أهلي في حال نجاتنا وفي حال افتراقنا نلتقي عند صديقتي هذه، ومن ناحية أخرى لم أعد أستطع أن أحتمل سماع النحيب والصراخ، مع أنني حاولت جهدي ألا أضعف أمام أخي الصغير (ياسر) وخاصة لا أعرف مصير والدي ووالدتي وجميع إخوتي وماذا حصل لهم.

أوقفت سيارة كانت مارة في الطريق وسألت السائق إذا كان من الممكن أن يأخذني إلى منطقة برج البراجنة. وصلت المخيم عند منزل أحد صديقاتي الذي كنت قد درست معها، التمريض في «موسكو», فاستقبلتني والدتها أم علي بالترحاب، وقالت لي أن ابنتها وأخيها ذهبوا إلى منطقة دار المعلمين للبحث عني وعن أهلي. أخذت أم علي أخي الصغير ياسر لتحممه وحاولت أن تطعمه بعض الطعام ولكنه استغرق في النوم.

انتظرت طويلا عل أحدا من أخوتي يأتي، لكن دون فائدة، وبدأت أفكاري تأخذني بعيدا، هل هم جميعا قتلوا في هذه المجزرة، لم أستطع النوم أو فعل أي شيء حتى صباح اليوم التالي حيث ذهبت إلى منطقة الجامعة العربية، حيث أن كثيرا من الناجين مجتمعين هناك يسالون عن أقاربهم الذين لا يعرفون مصيرهم. التقيت بعمي (موسى السويد) الذي أتى من مخيم الرشيدية للبحث عن والدي، وعندما رآني ضمني إلى صدره وهو يبكي بحرقة، يسألني عن الوالد والوالدة ولكني لا أعرف شيئا حتى الآن، عند ذلك رجع عمي إلى جنوب لبنان، آملا أن يكونوا قد ذهبوا إلى مخيم القاسمية في صور عند بيت جدي. وفي اليوم التالي بعد البحث والانتظار المرير، أخبرتني إحدى النساء أنها شاهدت والدي عندما انزله أحد المسلحين من حزب الكتائب اللبناني الفاشي وأرداه قتيلا بعد إطلاق رصاصة على راسه، رحمه الله، وأن والدتي وأخوتي قد أخذوهم إلى منطقة شمال لبنان. رجعت إلى بيت صديقتي لأخبر أهلها بأنني أريد الذهاب إلى الشمال للبحث عن والدتي وأخوتي لأفاجئ بأن أختي الحبيبة وتوأم رو حي (سامية) قد حضرت من الشمال تبحث عني، لأن بعض الأشخاص قد أخبروها أنني قد قتلت مع جميع الممرضين والممرضات، التقينا وكان لقاءً لا أستطيع أن أوصفه، عانقنا بعضنا ولم نتفوه بكلمة سوى أن نذرف الدموع ونحن معانقين بعضنا البعض.

تحية إجلال وتقدير إلى جميع الشهداء الأبطال من النساء والأطفال

تحية إلى كل قطرة دم سالت من أجل الكرامة وإثبات الذات
تحية إلى أصدقائي من الممرضين والطاقم الطبي، إلى ممدوح رسلان، ومحمود، وخالد، وصبحي، سوف لن أنساكم ما دام في روحي نسمة حياة.
تحية احترام إلى والدي الحبيب، الشهيد محمد أبو سويد (أبو عدنان)
تحية إلى أخي الشهيد سامي أبو سويد تحية إلى جميع الأبرياء والمظلومين.

الاحد 2 حزيران 2013

الممرضة فريال أبو سويد تعيش حالياً مع زوجها وأولادها وأحفادها في سدني (أستراليا) وتعمل في أحدى العيادات النفسية

شهادة الممرض عارف

أودّ أن اتحدث عن فترة ما قبل الحصار بقليل. بعد مأساة مجزرة الباص في عين الرمانة كانت فترة متوترة، تخللتها بعض الأحداث، وكان هناك لجنة ارتباط. كنت ادرس التمريض في «المركز اللبناني للعلوم التمريضية» في بيروت كنت أتردد على مستشفى «القدس» في الحازمية للتدريب. وفي أحد الأيام، سمعت أن هناك مجموعة كبيرة من الجرحى والمصابين في تل الزعتر ويجب إخلائهم. اتخذ قرار بتشكيل قافلة لأخلاء الجرحى من الهلال الأحمر الفلسطيني والصليب الأحمر اللبناني وكان من ضمن قافلة الهلال اثنين من المتطوعين طلاب طب في الجامعة الأمريكية في بيروت من معارف الدكتور نبيل نصار، تحركنا باتجاه وعند وصولنا جسراألاحدب على طرف مخيم جسر الباشا أوقفنا حاجز من القوات اللبنانية, وعندما عرفوا بوجود فلسطينيين ضمن القافلة انزلونا من السيارات وأوقفونا الحائط وأيدينا مرفوعة, وسمعت همسات بانهم سوف يطلقوا النار علينا وكان ضمن القافلة مبعوث اجنبي الذي اجرى بعض الاتصالات ونجحت مساعيه بإنقاذنا وساعدنا في إكمال طريقنا إلى مخيم تل الزعتر وصلنا الى مقر لجنة الارتباط في المخفر عند مستديرة المكلس كان هناك الأخ ابوحسن سلامة ومجموعة من الضباط اللبنانيين وأخبرناه ما حدث معنا ، اخبرنا أن نكمل مهمتنا وهو سيقوم بتدبير الأمر وفي طريق عودتنا مع الجرحى من نفس الطريق ،سمحوا لنا بالمرور ولكن بعد أن قطعنا مسافة قصيرة ،بدأوا بإطلاق النار علينا من كل الجهات ،قبل وصولنا الى مستشفى القدس بقليل ،اخبرني سائق الإسعاف الذي كنت اجلس بجانبه واسمه «ابوالليل»، انه أصيب في ظهره وانه يشعر بضيق وصعوبة في التنفس ، وفعلا عندما نظرت الى ظهره كان مصاباً أسرعنا الى المستشفى وهناك أجريت له عملية كان هناك نزيف في صدره.

اما عن ذكريات الحصار:

بعد أربعين سنة. أرجو أن لا تخونني الذاكرة وان انقل صورة واقعية. كان هناك العديد من الإصابات الكبيرة التي تتطلب تدخل جراحي في وقت كانت الإمكانيات

محدودة جدا ولكن بفضل وجود الكادر الطبي وخاصة الإخوة ممدوح ومحمود واحمد أورفلي واحمد عِوَض وأيوب وباقي الأخوات أمام هذا الوضع أخذ الأطباء القرار الجريء بالقيام باجرا العمليات الجراحية. الدكتور يوسف شجعني على تعلم التخدير واستعمال مادة الأثير للتخدير من خلال قناع "ماسك " معدني يشبه المصفاة لم يكن هناك أجهزه لاستنشاق الأثير وكان هناك " الكتلار" للتخدير العام الوريدي و "الفينوباربيتال" عملنا في فيها نوع من المخاطرة ولكن بنفس الوقت في الكثير من الجرأة وبالرغم من الإمكانيات البسيطة استطاعتنا إنقاذ حياة العديد من الجرحى. والمصابين، ولكن في بعض الحالات لم نوفق فيها منها عملية الأخ الشهيد «ابو محمد عيد " عملية بتر فوق الركبة بسبب الغرغرينا، ولم نستطع إنقاذه وكان الدكتور عبد العزيز الذي باشر بالعملية بالرغم من الإمكانيات الضئيلة، لان نقل الجرحى للعلاج بالخارج كان مستحيل.

في أحد الأيام ذهبت لارتاح قليلا وعندما عدت بعد ساعة ونصف. رأيت الجميع في عبوس وحزن. أخذني ممدوح والدكتور عبد العزيز جانبا وأخبروني أن اخى أصيب. إصابة خطره واحضروا وقد استشهد على الفور. وحز ذلك في نفسي كثيراً لأنني لم أستطع أن أكون موجودا وانا الذي كنت في استقبال أغلبية الإصابات. أصابني تأنيب ضمير لأنني لم أستطع استقبال أخي في ذلك اليوم وكنت حزين جداً. بالرغم من انه في كل بيت كان هناك شهيد.

اشتد الوضع علينا بعد أن أخلينا المستشفى ووزعنا الجرحى والمصابين على عدة نقاط طبيه وأتذكر الممرض نظيم. وهو الذي تولى مهمة شاقة محفوفة بالمخاطر، حيث كان يقوم بالزيارة يوميا للنقاط الطبية للغيار على الجروح. وقد ابتكر طريقة لدلك، قام بصنع "كشة" يعلقها برقبته ويضع فيها المطهرات والشاش، الشاش ليس الذي نعرفه، شاش من قصاصات الأقمشة والشراشف. وأيضا اذكر أنه لم يكن موجودا في مركز الطوارئ عندما وصل اخوه نيازي وقد أصيب أصابه قاتلة، ويومها اتخذ قرار بتحنيطه، فيما لو استطاعوا نقله الى خارج المخيم فيما بعد. وقام الدكتور يوسف والدكتور عبد العزيز بتحنيطه وكانت أول مرة في حياتي احضر فيها تحنيط بتفاصيلها. في مرحلة الحصار في تل الزعتر مرت علينا كل الحالات، كما لو أننا في مستشفى مؤهل (مستشفى ٧ نجوم) لكثرة وتنوع الإصابات وكثافتها وقمنا بكل ما استطعنا القيام به في تلك الظروف القاسية.

عارف طه (البقاع)

فني تخدير

رسالة مفتوحة إلى وزير الدفاع الإسرائيلي بن اليعيزر

هيلينا كوبان *

■ الوزير المحترم بن اليعيزر

التقينا مرة واحدة قبل ثلاث سنوات في قاعة الاستقبال الواسعة في فندق دان في تل ابيب، حيث عرّفنا على بعضنا المعلق العسكري الاسرائيلي زئيف شيف. لكنك بدوت منشغلاً، وأسرعت لتكلم شخصاً آخر. اسفني ذلك، لانني اردت ان احادثك اكثر.

الواقع انني لم اعلم إلا لاحقاً، بعدما اخبرنا يوسي ميليمان، بوجودك مع قادة الكتائب خلال حصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني شرق بيروت. كان هذا بالتأكيد موضوعاً ممكناً للتحادث. هل تعتبر عملية تل الزعتر تلك من بين انجازاتك؟ لا بد من أن التعاون ومحاولة تنظيم ميليشيا الكتائب و«نمور» كميل شمعون كان صعباً، اذ لم يبرهنا على فاعلية في المعارك. لكنك ثابرت على المهمة، ونجحت بعد ثمانية أسابيع من الحصار القاسي في الاستيلاء على المخيم.

هل تذكر ذلك الشاب «اللطيف» بشير الجميل؟ لقد دعانا، نحن المراسلين الصحافيين، صباح اليوم التالي لسقوط المخيم الى مؤتمر صحافي لاعلان الانتصار، وقال، قبل ترتيب زيارتنا الى الموقع، بانكليزيته التي كانت تتحسن في اضطراد تلك الأيام: «انا فخور بما ستشاهدونه هناك!».

ثم دخلنا تل الزعتر - واذكر انني كنت برفقة الراحل جو اليكس موريس - حيث استرعى انتباهنا أمران: الأول كان ذلك السيل من الناهبين، بسياراتهم وشاحناتهم الصغيرة المحملة بما تبقى مما كان في مساكن المخيم الفقيرة من اثاث وكراس وحتى، هنا وهناك، دراجات الأطفال. كانت تلك عملية منظمة كما اكد لنا مرافقنا من «القوات اللبنانية». وللبرهنة على ذلك اوقف واحدة من السيارة وطلب من السائق ابراز «التصريح» المختوم الذي مكنه من المشاركة.

الأمر الثاني كان ما بدا وكأنه عدد لا يحصى من الصرر - صرر الملابس غالباً - في كل مكان، خصوصاً على الطريق الطيني الرئيسي، التي تخلت عنها الأسر الهاربة في فوضى ورعب الساعات الاخيرة قبل السقوط.

لكن نظرة ثانية اظهرت لي ان الكثير من تلك الصرر لم يكن كذلك، بل هي جثث بدأت بالانتفاخ تحت الشمس. في تنقلنا رأينا المزيد والمزيد منها، وشعرت بالغثيان عندما أجبرت نفسي على تفحصها. فقد كان من الواضح ان سيارات الناهبين داست بعضها مراراً وتكراراً على مدى الساعات السابقة وكادت ان تسويها بالأرض، فيما برزت من بين بعضها كف او قدم مكتملة لم يطلها الدهس. اما الجثث على حافتي الطريق فكانت كلها منتفخة بشكل بشع. وفي ساحة صغيرة مليئة بالحجارة كانت هناك كومة جثث مبقورة البطون لنساء وأطفال بدا انهم من عائلة واحدة.

كنا تركنا السيارات ومشينا لعمق المخيم، ورأيت بعض المراسلين وهم يدورون بين الجثث وكأنهم في ذهول. صحيح ان كل من يغطي حرباً اهلية يعرف بشاعاتها التي تعصى على الوصف (يعزونها احياناً الى ما يسمونه «حمى الحرب»)، لكن «القوات اللبنانية» والمليشيات المتحالفة معها كانت الوحيدة التي تدعو الاعلام الى زيارة «حقول القتل» تلك لاستعراض المجزرة والفخر بها. لم تكن هذه المرة الاولى لبعض المراسلين معنا، اذ سبقت لهم المشاركة في «جولات انتصار» مشابهة على مناطق مثل الكرنتينا. لكنها كانت للكثيرين منا أول استعراض من هذا النوع تدعونا اليه «القوات اللبنانية» وحلفاؤها.

ولم يكن للمراسل من أمل في التماسك ازاء هول ذلك المشهد سوى اخراج دفتر الملاحظات والتركيز في شكل آلي على مهمات المهنة - تعداد الجثث ووصف المشهد وتدوين الملاحظات، واختيار الكلمات المناسبة لوصف الروائح، وتسجيل ما يقوله مرافقك الشمعوني الشاب.

نعم، سجلت الكثير والكثير من الملاحظات، لكن عندما أشاروا الى «عيادة الجبهة الشعبية... سترون الكثير هناك»، لم استطع التقدم نحو ذلك القبو. جو اليكس استطاع، وعاد ليقول: «ساخبرك في ما بعد».

خلال ذلك جلست قرب المدخل، وشعرت فجأة انني لوحدي. المخيم كله كان حطاماً، والتراب في كل مكان. نظرت الى شجرة صغيرة ميتة عطشاً، ثم ادركت انني لم اكن وحدي. فهناك في التراب ثلاث جثث لمسنين: امرأتان ورجل، بثياب سود يغطيها الغبار. بدا وكأن احداً قلبها لتستلقي على الظهر، ربما للتفتيش عن الهويات، من يعلم؟ واحدة من النساء كانت بوشم أزرق على الوجه. كانت الجثث في الظل ولذا لم تبدأ بالانتفاخ. وبدا لي ان الثلاثة من سكان الجوار، وانهم خرجوا لطلب الرحمة عندما اجتاحت قوات الكتائب المنتصرة المخيم. لكن ما من رحمة (إلا اذا كانوا قتلوا بسرعة، كما أوحى منظرهم، وهي رحمة بمقياس تلك الأيام السود).

لكن اعود اليك ايها السيد الوزير، اريد ان اعرف ان كنت في تل الزعتر تلك الأيام. ما هي ذكرياتك عنه؟ كان يمكننا بالتأكيد التحدث عن ذلك. بل ان على الجميع الكلام، وأن يقولوا الكثير عن تل الزعتر، مع اقتراب ١٢ آب (أغسطس) المقبل، الذكرى الـ٢٥ للكارثة. كيف ستقوم الذكرى؟ ما هو الدور الذي تريده فيها ايها السيد الوزير؟

ذكرى تل الزعتر مهمة لأسباب عدة: أولاً، لتكريم نحو الفين من الضحايا الذين لاقوا مصيرهم الوحشي هناك، وأيضاً لادخال العزاء، قدر ما يمكن بعد ٢٥ سنة، على قلوب الناجين (ويا لهول وضعهم بعد المجزرة، عندما انتشروا في انحاء بيروت الغربية شهوراً بعدها وقد أذهلتهم الصدمة).

ثانياً، من المهم تذكر تل الزعتر لأن هناك الكثير من الأسئلة عن كيفية تنظيم الهجوم على المخيم. وربما كان علينا، ايها السيد الوزير، تشكيل لجنة دولية لتقصي الحقيقة لكي تحدد دورك في ذلك، وأيضاً دورك في رعاية بشير الجميل من خلال تلك العملية لكي يصل الى قمة هرم السلطة في الكتائب.

ثالثاً، نذكر تل الزعتر مهمة بسبب ما حصل بعدها بست سنوات: أي مجزرة صبرا وشاتيلا. فقد كانت هناك مرة اخرى قوات الكتائب المتحالفة مع اسرائيل، يقودها مقربون من بشير الجميل بعد اغتياله بوقت قصير. واجتاحت تلك القوات المخيمين وأعملت فيهما قتلاً. لكن دور اسرائيل هذه المرة كان بالطبع أقوى وأكثر علانية بكثير. اذ لم يقتصر، كما في حال تل الزعتر، على حفنة من ضباط الاستخبارات الذين كانوا هناك لتقديم المشورة، اضافة الى التنظيم والتدريب وتجهيز السلاح، بل كانت مداخل المخيم تحت سيطرة المئات من الجنود الاسرائيليين، الذين واصلوا اطلاق القنابل الضوئية تلك الليلة لمساعدة الكتائبيين على الاجتياح والقتل.

في التحقيق الذي تلا ذلك ادعى ارييل شارون، وزير الدفاع وقتها، انه «لم يخطر بباله أبداً» ان الكتائبيين سيرتكبون تلك الفظائع عند دخول المخيمين (المنزوعي السلاح تماماً)، في تلك المهمة التي افترض شارون انها «أمنية روتينية».

لقد كنت في تل الزعتر ايها السيد بن اليعيزر. ألم تكلم شارون أبداً في الفترة ما بين ١٩٧٦ و١٩٨٢؟ ألم تقدم له تقريراً عن تلك «المعركة العظيمة» في تل الزعتر؟ (في القانون الدولي ما يسمى «مبدأ ياماشيتا» المستند الى قضية الجنرال الياباني الذي يحمل هذا الاسم. فقد رفضت محكمة جرائم الحرب بعد الحرب العالمية الثانية دفاعه القائم على الجهل بالجرائم التي ارتكبتها القوات تحت قيادته، واعتبرت انه كان مسؤولاً عن تقصي ومنع الانتهاكات. هذا المبدأ ينطبق بالتأكيد عليك وعلى شارون في ١٩٨٢).

لكن ها انت وشارون الآن على قمة السلطة في اسرائيل. واعتقد انكما مدينان للانسانية بتذكر تل الزعتر وصبرا وشاتيلا، وإحناء الرؤوس أمام الفلسطينيين وطلب المغفرة منهم. وربما كان عليكما ايضاً، اثناء الركوع وطلب المغفرة على كل المجازر والنكبات التي الحقتم بالفلسطينيين، أن تنظرا في إمكان التكفير.

قتلى تل الزعتر الألفين لن يعودوا الى الحياة، ولا الألوف من الفلسطينيين غيرهم الذين قتلتهم وسلبتهم اسرائيل خلال العقود، كما لا عودة لمئات الاسرائيليين الذين قتلهم الفلسطينيون.

لكن الا يمكنك الآن، تذكراً لكل قتلى الصراع، وتشريفاً وتعزية للناجين، أن تعلن ان الوقت قد حان لسلام انساني يعطي الناجين من الفلسطينيين دولة صغيرة قادرة على البقاء على جزء من أرضهم الفلسطينية، لكن بمساحة تكفي لاستيعاب (على الأقل) اللاجئين الفلسطينيين في لبنان بعد كل ما عانوه من أهوال؟ أم هل تعتقد ان اليهود وحدهم يشعرون بالألم، ووحدهم ضحايا المجازر، ووحدهم من يحتاج العزاء والطمأنينة التي يعنيها وجود الوطن؟

اذا كانت هذه العنصرية، هذا الانغلاق على الذات، هو ما تؤمن به، أخشى اننا سنشهد تل الزعتر تتكرر خلال الشهور المقبلة في انحاء الضفة الغربية وغزة. هل سترى، أنت وشارون، انها تعني «الانتصار»؟

* كاتبة بريطانية متخصصة في شؤون الشرق الأوسط.

وثيقة 4 خارطة تبين مخطط الهجوم على مخيم تل الزعتر



صور الممرضين والممرضات الشهداء



الشهيد ممدوح حكمت رسلان

□ الشهيد ممدوح حكمت رسلان :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٥٤ في تل الزعتر .

ـ التحق بجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني سنة ١٩٧٠ .

ـ كان من مؤسسي مستشفى الكرامة ـ تل الزعتر .

ـ استشهد في ١٢ آب سنة ١٩٧٦ اثناء القيام بالواجب بتضميد جراح المصابين .



الشهيد ايوب عوض الاحمد

□ الشهيد ايوب عوض الاحمد :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٤٧ في الخالصة «الخصاص» ـ فلسطين .

ـ شارك في المجال الصيدلي والصحي في معسكر التل .

ـ بقي صامدا يضع البلسم على الجراح حتى الرمق الاخير .

ـ استشهد في ١٢ آب ١٩٧٦ وهو يحمل الجرحى الى الدكوانة .



الشهيدة سميرة محمد بدران

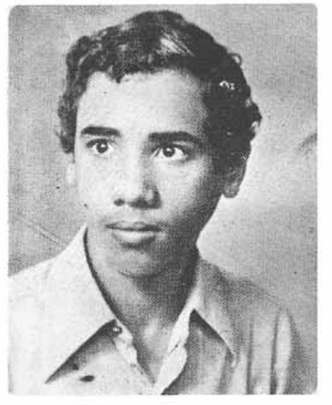
□ الشهيدة سميرة محمد بدران :

ـ ولدت سنة ١٩٥٥ في تل الزعتر

ـ التحقت بمستشفى الكرامة بعد انهاء دورة التمريض سنة ٧٢ .

ـ اعطت الكثير من التضحية والصمود مع المقاتلين في فرقة الاسعاف .

ـ استشهدت في الجبل وهي تقوم بواجبها الانساني .



الشهيد صبحي يوسف شحاده

□ **الشهيد صبحي يوسف شحادة :**

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٥٨ في تل الزعتر ·

ـ اصيب براسه خـلال الحصار ١٩٧٣ بفتح نقط الاسعاف المتجولـة وهو يقوم بالواجب ·
ـ استشهد بتاريخ ١٢ اب ١٩٧٦ وهو يحمل الجرحى الى الدكوانة ·



الشهيدة سـلوى يوسف محـمد

□ **الشهيدة سلوى يوسف محمد :**

ـ ولدت سنة ١٦٥٥ في تل الزعتر
ـ تابعت دروسها الثانوية ·
ـ عملت مدرسـة في الفتـرة الاخيرة ·
ـ التحقت بمستشفى الكرامـة سنة ١٩٧٥ ·
ـ تطوعت في الخدمة الانسانيـة لمشاركة الجرحى في الامهم ·
ـ استشهدت في ١٢ اب وهي تقوم بواجبها الانساني في الجبل مـع مجموعـة مـن جيش التحرير الفلسطيني ·



الشهيدة هناء محمد شحرور

□ **الشهيدة هناء محمد شحرور :**

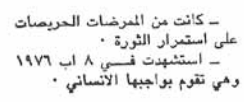
ـ ولدت سنة ١٩٥٨ ·

ـ التحقت بالهـلال الاحمـر الفلسطينـي بعـد ان انهت دورة تمريض ·
ـ اثبتت وجودها بقوة شخصيتها في خدمة الانسان ·
ـ استشهـدت في ١٢ اب ١٩٧٦ بعد ان ادت واجبها في خدمـة الشعب ، بعد ان خطفت من الدكوانة من قبل الانعزاليين ·

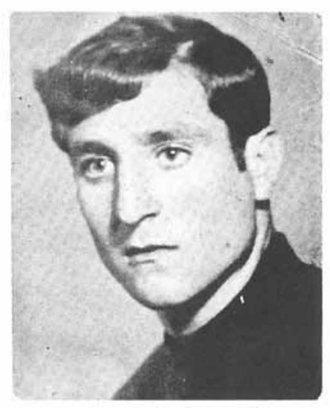

الشهيدة آمنة حسن

□ الشهيدة آمنة حسن :

- ولدت سنة ١٩٦١ في تل الزعتر .
- التحقت بالهلال الاحمر الفلسطيني سنة ١٩٧٣ بعد انهاء دورة تمريض .



- كانت من الممرضات الحريصات على استمرار الثورة .
- استشهدت في ٨ اب ١٩٧٦ وهي تقوم بواجبها الانساني .


الشهيد علي قاسم دبور

□ الشهيد علي قاسم دبور :

- ولد الشهيد البطل سنة ١٩٥٢ في مزرعة مشرف .
- انتقل الى التل ليشارك في صمود اهله ضد الانعزاليين .
- التحق بالدورات الصحية ليخفف من الام الجرحى .
- استشهد بتاريخ ١٢ آب ٧٦ وهو يدافع عن شعبه المجرد من السلاح في الدكوانة .


الشهيد احمد فهد اورفلي

□ الشهيد احمد فهد اورفلي :

- ولد الشهيد البطل سنة ١٩٤٧ في دير القاسي - فلسطين .
- التحق بجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني سنة ١٩٦٩ وكان مسؤولا عن طوارىء مستشفى القدس - الحازمية .
- شارك في معارك ١٩٦٩ و ١٩٧٣ .
- كان من المؤسسين لمستشفى الكرامة سنة ١٩٧٣ .
- شارك في صمود التل طيلة ايام الحصار حتى اللحظة الاخيرة .
- استشهد في ١٢ آب ٧٦ وهو يتابع عمله اثر الهجوم على تل الزعتر .

الشهيد مصطفى الصفي • الشهيد قاسم الصفي

□ الشهيد مصطفى الصفي :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٥٢ في مخيم الرشيدية •

ـ عمل في حقل التعليم في المدارس الخاصة ومدرسة منظمة التحرير في تل الزعتر •

ـ تابع الدورات الصحية في مستشفى الكرامة وبقي متطوعاً لتضميد الجراح في نادي الحسينية•

ـ استشهد في ١٢ آب ١٩٧٦ وهو يحمل الجرحى على طريق الدكوانة مع الاطباء •

□ الشهيد قاسم الصفي :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٥٤ في مخيم الرشيدية •

ـ التحق بجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ـ مستشفى الجليل سنة ١٩٧٣ •

ـ كان من الكوادر المثالية في مستشفى الكرامة اثناء الحصار •

ـ استشهد في ١٢ آب مع اخيه وهما يحملان الجرحى الى الدكوانة برصاص الانعزاليين •

□ الشهيد علي احمد المحمود :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٦٠ في تل الزعتر •

ـ تطوع بمستشفى الكرامة سنة ١٩٧٥ •

ـ شارك في صمود المخيم وعمل كمسؤول عن تموين المستشفى •

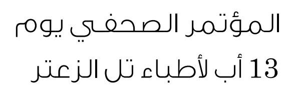
ـ استشهد بتاريخ ١٢ اب سنة ١٩٧٦ عند خروجه مع المرضين والاطباء على ساحة الدكوانة •

□ الشهيد خالد موسى علي :

ـ ولد الشهيد البطل سنة ١٩٦٠ في تل الزعتر •

ـ تطوع بالهلال الاحمر الفلسطيني بمستشفى الكرامة سنة ١٩٧٤ •

ـ استشهد في ١٢ اب ١٩٧٦وهو يحمل الجرحى الى الدكوانة •



المؤتمر الصحفي يوم
13 أب لأطباء تل الزعتر



الدكتور فتحي عرفات يتحدث في مؤتمر صحافي عن مأساة تل الزعتر ويحيط به الطبيبان يوسف العراقي وعبد العزيز اللبدي .



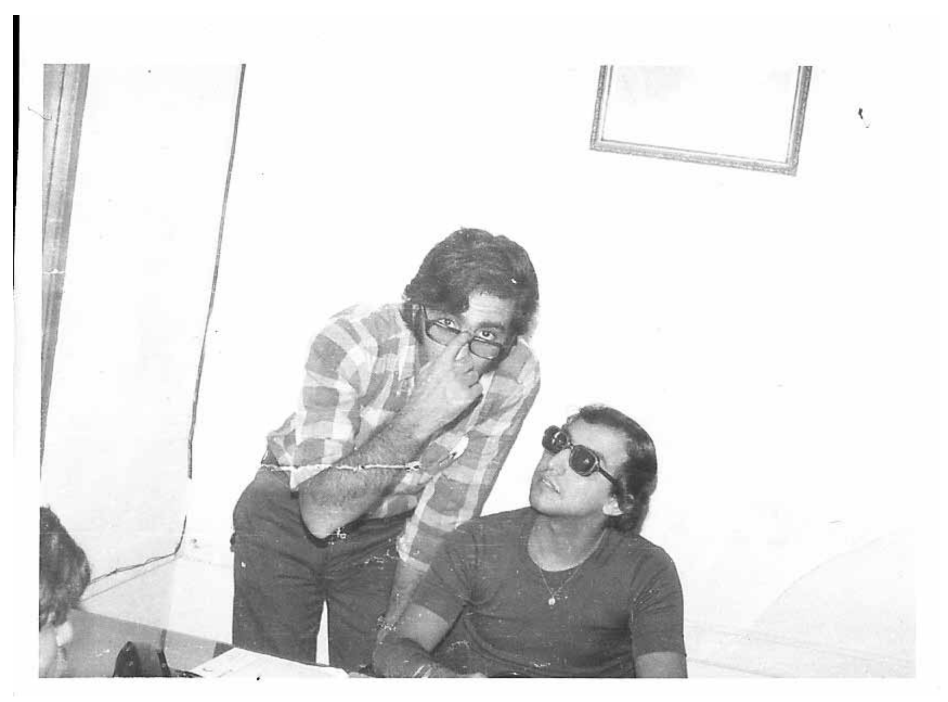
لمواساة الجرحى والسهر على راحتهم



ايفا ستروم فقدت زوجها وجنينها وذراعها

الممرضة السويدية إيفا

على اليسار: الممرضين والمتطوعين في مستشفى الهلال في تل الزعتر



د عبد العزيز والدكتور صلاح

د يوسف عراقي. مختبر مستشفى تل الزعتر





الممرضة فاديا سالم والدكتور يوسف عراقي في قسم الطوارئ



الممرض الشهيد ممدوح رسلان في اجتماع مع اللجان الصحية



د يوسف عراقي مع جان هو فليجر رئيس بعثة الصليب الدولي.



ما تبقى من الطاقم الطبي في مستشفى الدامور



مع إيفا حمد لقاء بعد 13 عاما في أوسلو



مستشفى تل الزعتر : محاولة للنهـوض الصحي والاج
في المخيم .

